سيكولوجية التـــــــــــصوف عند أبي الوفا الغنيمي التفتازاني

إعداد

أسماء جمعة القلعى
طالبة دكتوراة بكلية البنات جامعة عين شمس

إشراف

أ . د / كوكب محمد مصطفى عامر
استاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف
كلية البنات - جامعة عين شمس

معاونة

د / سهام إبراهيم عبد المجيد
المدرس بقسم الفلسفة
كلية البنات - جامعة عين شمس

مقدمة :

إن الحمد لله ، نحمدُه ونستغفره ونستعينه ونستهديه ، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهْدِ اللهُ فلا مضِلَّ له ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أنْ لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ، بعثه اللهُ رحمةً للعالمين هادياً ومبشراً ونذيراً، بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصحَ الأمّةَ فجزاهُ اللهُ خيرَ ما جزى نبياً من أنبيائه. صلواتُ اللهِ وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى صحابته وآل بيته، وعلى من أحبهم إلى يوم الدين....وبعـــــــد

إن الكتابة فى التصوف عامة، وفى التصوف الإسلامي خاصة، ليست سهلة ولا ميسورة، وأن الحكم له أو عليه أمر بالغ الصعوبة، إذا ما أريد لهذا الحكم أن يجيء ثمرة لنظر دقيق فى تراث التصوف من ناحية ، وفى مقاصد شخصياته وآرائهم من ناحية أخرى. وما لم يتأهل الباحث للسير فى هذين الحقلين على هدْي من نور العقل ونور القلب معًا فإن نتائج بحثه لا تنجو من القلق والاضطراب إن لم نَقُل: من التضارب والتناقض.

أسباب اختيار موضوع البحث :

ولعل السبب فى اختيار الباحثة لهذا الموضوع أن التجربة الصوفية فى جوهرها تجربة ذاتية ، متفردة غير قابلة للتكرار أو الاشتراك ، وأن اللغة على اتساعها كثيرًا ما تعجز عن الإفصاح بمكنونات هذه التجارب وأسرارها المعقدة، وصدق النفري فى قوله : (كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة)[١]، مقولة تصدق بحق على أستاذنا الكبير الدكتور/ أبو الوفا التفتازانى (١٩٣٠ – ١٩٩٤م) [٢] ، الأستاذ ،

---

١) محمد بن عبد الجبار بن حسن النفري الملقب بالنفري، (ت ٣٥٤هـ) ، ولد ببلدة " نفر " بالعراق وإليها ينسب. كان من كبار الصوفية وتنقل كثيرا بين العراق ومصر، ومن أشهر كتبه كتاب" المواقف والمخاطبات"، ومن فرط تواضعه لم يكتب ما كان يقول ، إنما كان يؤلف كتابه شفهيا لمريديه ، ويكتفى بذلك. ومن أشهر ما ذكر عنه أنَّه قال : " كلما اتسعت الرؤية، ضاقت العبارة". وتمثل هذه الجملة جوهرة واحدة من كنوز النفري الثمينة والتى اشتهرت شهرة واسعة بين المثقفين العرب (كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة) إذ إن الرؤية الرحبة ، روحية مطلقة ، بينما الكلمات بطبيعتها مادية قاصرة، ومن ثم فالعبارات ستر، أو غطاء للحقيقة الكبرى ، إذ إن الكلمات ما هي إلا إشارات تشير في اتجاه الحقيقة ، ولا يمكن لها أبدا أن تحتوي الحقيقة.

٢) أربع وعشرون عاماً مضت على وفاة الأستاذ الدكتور أبي الوفا التفتازانى ولا يزال فكره مضيئاً أمام الجيل ، الذى عاصره ، وأفاد من علم هذا المفكر والعالم الجليل ، ولا تزال شخصيته ماثلة للعيان ، وسيرته نموذجاً =رفيعاً للخلق الكريم ، والأدب النبيل .ولد الدكتور أبو الوفا التفتازانى في الرابع عشر من أبريل من عام (١٩٣٠م) بكفر الغنيمى مركز منيا القمح من محافظة الشرقية . من أسرة كريمة لها مكانتها ومنزلتها الرفيعة أي المجتمع ، والأستاذ من أهم علماء التصوف الإسلامى الذين حددوا مجاله ، ورتبوا موضوعاته ، وكشفوا النقاب عن شخصياته ، وصاغوا الأطر النظرية له ، وأبان عن تاريخه وأبعاده النظرية والعملية ، وعرف بالتجربة الصوفية وخصائصها ، وأوضح المنهج العلمى لدراستها ، وظل أكثر من خمسة وأربعين عاما أهم باحثى التصوف الإسلامى في مصر - منذ وفاة أبى العلا عفيفى أكتوبر ١٩٦٦ ومحمد مصطفى حلمى فبراير١٩٦٩- حتى الآن . كما يعد رائدا من رواد القرن العشرين فى مصرنا المعاصرة ، وهو شخصية متفردة بين أبناء جيله من العلماء، فقد كان من القلائل فى تاريخ الفكر العربى العالمي الذى عاش حياته بحق مفكراً صوفياً ، شيخاً جليلاً رغم عقلانيته ، نائباً سابقاً لرئيس جامعة القاهرة ، أستاذاً جامعياً متميزاً ، زاهداً رغم ثرائه ، إنه بحق الصوفى المستنير ..مستنيرا فى دراسته ..مستنيرا فى تعليمه وتعلمه .. مستنيرا فى تدريسه .. مستنيرا فى ربطه التصوف دوما بالأخلاق .. مستنيرا فى ربط التصوف دوما بعلم النفس .. مستنيرا فى ربط التصوف بتربية وسلوك مجتمعه ...نقده الدائم للظواهر السلبية فى المجتمع ومنها المغالون من المتصوفة ، وأصحاب الطرق .

والعالم ، والشيخ ، والداعية ، والصوفي المستنير. فلقد جمع التفتازانى بين نزعة روحية صوفية أخلاقية نابعة من تبنيه الاتجاه السني في التصوف وبين تحليلاته النفسية الدقيقة للتجربة الروحية .

اشكالية البحث:

تتمحور إشكالية هذا البحث في مجموعة من التساؤلات التي تثيرها طبيعة الموضوع ويمكن إجمالها فيما يلي :

- كيف انتهجُ استاذنا الكبير منهج التحليلُ النفسي فى الربط بين المنهج العلمي شديد العقلانية وبين التجربة الروحية للمتصوف ، حتى لتقترب في تعريفها من منظومة الدين والتصوف ؟.
- ما هى طبيعة التجربة الروحية عند أبى الوفا الغنيمى التفتازانى؟ .
- البحث عن العلاقة بين التحليل النفسي - باعتباره ليس منظومة أخلاقية فى المقام الاول - والتصوف عند أبى الوفا التفتازانى ، والذى يتمثل فى التوجه الأخلاقي . فكلا المنظومتين تفترضان أن يتماشى تحقيقُ غايتهما مع تحوُّل أخلاقيٍّ إيجابيٍّ ما ، يتمثَّل في التغلب على الحقد والغيرة والجشع والتخلص من سائر الصفات المذمومة ، ثم القدرة على الحبِّ والإيثار والرحمة (التحوُّل الأخلاقيٍّ الإيجابيٍّ) .

وهذه الأسئلة كثيرة ومتعددة تأمل الباحثة الاجابة عنها من خلال هذا البحث .

موضوع هذا البحث " سيكولوجية التـــــــــــصوف عند أبي الوفا الغنيمي التفتازاني " وهو شخصية مصرية لها مكانتها في المجتمع المصري خاصة ، وفي التصوف الإسلامي عامة ، ويعد صاحبها ممثلاً للتصوف الإسلامى فى جانبيه النظرى والعملى ، فقد كان ورعاً زاهداً وعابداً مطمئناً ، كما كان باحثاً فاحصاً محققاً مدققاً مثالاً ونموذجاً وواقعاً حيّاً للخلق الإسلامى ، مؤكداً أن الجانب المهم من التصوف هو الخلق ، وأن هذا الجانب من الحياة الروحية يمثل علم الأخلاق الإسلامى .

إن التصوف عامة يمثل تجربة وجدانية خاصة وليس شيئاً مشتركاً بين الناس جميعاً ، فلكل صوفى طريقة معينة فى التعبير عن حالاته ، فهو بعبارة أخرى خبرة ذاتية Subjective ، وهذا يجعل

كما يحتل الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى مكانة متميزة بين الرعيل الثالث من أساتذة الفلسفة بالجامعة المصرية، ففضلا عن تتلمذه على يد كل من الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق، شيخ الجامع الأزهر، والدكتور محمد مصطفى حلمي والدكتور طه حسين، عميد الأدب العربي، استطاع الدكتور التفتازانى أن يترك بصمة مميزة في مسار الدرس الفلسفي المصري بصفة عامة، وفي سياق التأريخ للتصوف الإسلامى بوجه خاص.

وقد تنوع الإنتاج العلمي للدكتور التفتازانى بتنوع موضوعاته في الفلسفة تاريخاً ونصوصاً ، فنشر مجموعة من البحوث والمقالات، مثلما أصدر العديد من الكتب والمؤلفات في ميادين تخصصه الرئيسى (التصوف والفلسفة)، فضلا عن العديد من المحاضرات والندوات العامّة التي شارك فيها بمختلف الهيئات الدينية والعلمية.

على أنّ الدكتور التفتازانى قد أحب في حياته العلمية والخاصة الاقتراب من أعلام المتصوفة المسلمين تدريساً وتأليفاً بصفة خاصة، حيث اهتم بحياتهم وسيرتهم ومواقفهم ومن ثم تأثر كثيراً بهم. فكان من نتيجة ذلك أن كتب بتواصل مجموعة من أهم الدراسات العلمية القيمة.

ومع أن التفتازانى كان متخصّصاً فى دراسة الفلسفة الصوفية ، العميقة ، ولغة «ابن سبعين» الموغلة فى الرمزية والاستغلاق ، إلا أنه كان حريصاً على تبسيط المفاهيم الصوفية بأبسط العبارات. وقد جمع في الميدان الجامعى بين المتصوف وأستاذية الفلسفة الإسلامية ورياسة الجمعية الفلسفية المصرية والمشيخة الكبرى للطرق الصوفية في مصر ، مما لم يتوافر لغيره من رواد الفكر واختير التفتازانى في حياته عضوا في المجلس الاستشارى للأكاديمية الإسلامية بجامعة كمبردج والمجلس العالى للمؤتمر العالمى للدين والسلام في نيويورك ، وعضواً في مجلس الشورى المصري ، ونال الجائزة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام ١٩٨٥م ، ووسام الامتياز من الرئيس الباكستانى عام ١٩٨٩م ، وزار العديد من الدول الإسلامية والعربية والغربية ، وتوفى الدكتور التفتازانى عن أربعة وستين عاماً بعد حياة حافلة قضاها في خدمة الثقافة والبحث والمعرفة ، وترك سيرة عطرة ، ونموذجاً رفيعاً للسلوك والأخلاق وخدمة العلم ، وإثراء للدراسات الإسلامية .

من التصوف شيئاً قريباً من الفن خصوصاً وأن أصحابه يعتمدون على المنهج القلبى في معرفة الله والمنهج الاستبطانى[١] Introspection فى وصف حالاتهم [٢] .

يرتبط التصوف بالناحية السيكولوجية[٣] ارتباطاً وثيقاً إذ يمثل سلسلة متصلة الحلقات من الحالات الوجدانية الخاصة ، حيث إنه يعتمد كما ذكرنا على المنهج الاستبطانى المستخدم في علم النفس ، وهذا ما يجعل التعبير عنه - فيما يرى أبو الوفا التفتازانى - صعباً للغاية ، وذلك أن المتصوف حين يعبر عن حالاته الوجدانية بعد زوالها يقوم بعملية تذكُّرٍ الماضى القريب ، والقدرة على الوصف والتحليل والتذكر تختلف قوةً وضعفاً باختلاف الأفراد[٤] .

وأحياناً يلجأ الصوفية في التعبير عن حالاتهم الوجدانية إلى أسلوب الرمز ، وذلك لإخفاء أذواقهم عمن ليس أهلاً لها [٥]، حيث إن اللغة أداة عاجزة عن التعبير عن الوجدانيات تعبيراً صادقاً ، وقد يحدث أحيانا أن يختلف اثنان من المتصوفة في التعبير عن حالة وجدانية معينة اختلافاً لفظياً ، وهذا إن دل على شيء فهو يدل - فيما يرى التفتازانى - على أن التصوف تجربة خاصة ، بمعنى أنه ليس شيئاً مشتركاً بين الناس جميعاً ، والمتصوف يعبر عن تجربته بأسلوب محدد وطريقة معينة تختلف عن تلك الطرق التى يعبر عنها متصوف آخر ؛ لأن التجربة هنا ذاتية ، وهذا ما يجعل أبو الوفا التفتازانى ينظر إلى التصوف على أنه قريب من الفن [٦]. إن هدفى من هذا البحث أن أوضح رأي أبي الوفا التفتازانى في الناحية السيكولوجية في التصوف .

ويستند التفتازانى في فكرته عن التجربة الصوفية هنا إلى ما نسب إلى الصوفية المسلمين من أن طرق الوصول إلى الله تعالى بعدد الأنفس[٧] .

---

١) منهج الاستبطان Introspection يعنى أن ينظر الإنسان داخله ليتأمل ذاته وليحدد ما يدور فيها، واصفا حالاته الشعورية بالاعتماد على تذكر الماضى المباشر القريب ، وهو منهج من المناهج المستخدمة فى علم النفس الحديث فجوهر هذا المنهج هو الملاحظة الذاتية، حيث يقوم الفرد بملاحظة ذاته، وينقسم فى ذات الوقت إلى ملاحِظ وملاحَظ، فهو الذى يرصد ما يدور بداخله من أفكار ومشاعر وانفعالات، وهو الذى يحدثنا عنها بصدق أو بدون صدق، لذلك كانت هناك الكثير من المحاذير المرتبطة بهذا المنهج. لكنه من الجدير بالذكر أن هذا المنهج قد لعب دوراً هاماً فى البحوث والدراسات قبل ظهور المنهج العلمى، ومازال لهذا المنهج أهميته وضرورته فى دراسة بعض الظواهر النفسية، كذلك كان أساساً للعديد من الأدوات والمقاييس النفسية خاصة فى دراسة الشخصية وأبعادها المختلفة. (يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام ، القاهرة ، ١٩٥٤م ، ص ١٤ وما بعدها / جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبنانى ، د.ط ، بيروت ١٩٨٢م ص: ٦٤) .

٢) أبو الوفا التفتازانى ، مدخل إلى التصوف الإسلامى ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ،القاهرة ، ط٣ ١٩٧٩ م ، ص ٩ .

٣) اهتم بهذا النوع من الدراسة، الأستاذ الدكتور/ محمد كمال جعفر - رحمه الله - فى كتابه " التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً " ، والأستاذ الدكتور/ عامر النجار في عمله المقدم لنيل درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بعنوان " التصوف النفسي " فيه سرد لأهم الآراء النفسية لدى أئمة السادة الصوفية في القرن الثالث الهجري وبخاصة الإمام المحاسبي والحكيم الترمذي والإمام التستري مع الربط بموضوعية بين تلك الآراء وتعمقها الشديد في النفس البشرية . وتوضيح سبق هؤلاء الأئمة في الكثير من آرائهم عن علم النفس الحديث.

٤) التفتازانى : سيكولوجية التصوف ، مقالة نشرت بمجلة علم النفس ، عدد أكتوبر ، ١٩٤٩م ، ص٢٩١.

٥) أبو الوفا التفتازانى ، مدخل الى التصوف الاسلامى ، ص ٩ .

٦) أبو الوفا التفتازانى ، مدخل الى التصوف الاسلامى ، ص٢٩١.

٧) وتعني أنّ كلّ نَفَسٍ يتنفّسه الإنسان يمثل طريقاً لاكتساب مرضاة الله ؛ ولذلك قال ابن القيم رحمه الله : " الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق " ألف طريق موصل إلى الله معظمها الأعمال الصالحة، والعمل الصالح يرفعك، وأوضح آية:(مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) سورة الكهف ، الآية ١١٠.

هناك بعض الحالات النفسية المعقدة عند المتصوفة ، وهذه الحالات يصعب إدراك حقيقتها لأنها لا تنطبق على عالم الواقع ، ولا يمكن إخضاعها للتجريب العلمى أو التحليل النفسى . ومن هذه الحالات الكشف [١] والإلهام [٢] والعلوم اللدنية التى يتحدث عنها المتصوفة[٣].

ويؤكد أبو الوفا التفتازانى على أن الكثير من علماء النفس الذين درسوا الظواهر النفسية للتصوف دراسة علمية ، لم ينصفوا التصوف ، ولعل هذا راجع إلى بعض الأخطاء المنهجية في الدراسة ، فهم كانوا يحصرون أنفسهم في دائرة التجربة الحسية وحدها ، ولم يدققوا في فهم مصطلحات الصوفية التى عبروا بها عن أحوال وجدانية ذاتية خاصة لا تتصف بصفة العمومية .

ولهذا يرى أبو الوفا التفتازانى أن الباحث لكى يحكم على هذا النوع من التصوف حكماً صحيحاً فلابد له أن يخوض التجربة ، أو أن يكون لديه استعداد معين لتذوق التصوف ، وهناك من يتهكم على التصوف ولا يعده من علوم الدين ، وقد اعتبره بعض علماء النفس انحرافاً نفسياً[٤].

ويرد الدكتور عامر النجار[٥] على هؤلاء - الباحثين النفسيين - بقوله : « لعلى أجد أن تهكم هؤلاء الباحثين النفسيين على التصوف يتأتى من عدم فهمهم للدين الإسلامى ، فالصوفى في المقام

---

١) يطلق الدكتور التفتازانى على الكشف الصوفى المباشر Intuition mystique منهج الشهود الذوقي الذى لا انتقال فيه بالذهن من معنى إلى معنى ، إذ هو منهج يدرك به الصوفى الحقيقة العليا (الله) إدراكاً ذوقيّاً =مباشراً لا مدخل فيه لاستدلال العقل ، وهو منهج خاص بالصوفية وحدهم ، يؤثرونه على غيره من مناهج المعرفة (أبو الوفا التفتازانى ، ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، ص ٢٧٥) .

٢) الإلهام لغة: ما يلقى في الروع أو ما يلقيه الله في النفس من الأمور التي تبعث على الفعل أو الترك. (لسان العرب ٥/١٢) ، وفي الاصطلاح: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر ويطمئن ويسكن من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة يخص الله تعالى به بعض أصفيائه. (تعريفات الجرجاني ص٣٤) ، وقد يسمى بالعلم اللدني، قال الإمام ابن القيم رحمه الله: (... والعلم اللدني: هو العلم الذي يقذفه الله تعالى في القلب إلهاما بلا سبب من العبد ولا استدلال ولهذا سمي لدنيًّا) (مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٤٣١/٣) ، وذهب الإمام الغزالي إلى التسوية بين وحي الأنبياء وإلهام الأولياء من جميع الوجوه باستثناء مشاهدة السبب وهو المَلَك فقال: (ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك، بل في مشاهدة المَلَك الملقي للعلم، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة) (الغزالى (أبو حامد) : إحياء علوم الدين ، ط١ ، دار ابن حزم ، بيروت ٢٠٠٥م ١٩/٣).

٣) أبو الوفا التفتازانى : سيكولوجية التصوف ، ص٢٩٢.

٤) المماثلة في المنطق صفة المفهوم (أي الفكرة الشاملة العامة) الذي يصدق على كائنات مختلفة أو حقول مختلفة من الوجود بتغير معناه من غير أن يفنى قوام المفهوم ذاته. فليس المفهوم مشتركاً أي ذا معاني متباينة =تبايناً تاماً عند اتفاق اللفظ ، وليس هو متواطئاً أي ذا نفس المعنى الوحيد في أي سياق وأية جملة كان، وإنما هو مماثل أي يحتفظ بقوام المفهوم ذاته عند التغير الباطني في معناه حتى إن الهوية والتباين أو الشبه والخلاف يتحدان في قوام المفهوم بغير انفصام. وتتأصل المماثلة المنطقية في المماثلة الحقيقية أي في شبه وخلاف الكائنات. وكما يشمل مفهوم الوجود المماثل المفاهيم العامة كافة، كذلك تتمثل مماثلة الوجود في شبه وخلاف الكائنات . والمماثلة هذه هي الترجمة العربية للمصطلح اليوناني Analogia التي يقترحها يوسف كرم ومراد وهبة ويوسف شلالة: المعجم الفلسفي، القاهرة ١٩٦٦، صفحة ٤٢ ، لفظة " تشكيك أو مماثلة ".

٥) عامر النجار : عامر ياسين محمد النجار ولد في عشرين يوليو من عام ١٩٤٤م ، بحي الأزهر بمدينة القاهرة ، نشأ في بيئة متوسطة عرفت بتدينها وحبها للعلم ، فقد كان والده الشيخ ياسين النجار من علماء الأزهر ، وعمه هو العلامة الشيخ محمد على النجار المحقق اللغوى الكبير وعضو مجمع اللغة العربية الأسبق ، وكذا عمه الدكتور عبد الحليم النجار صاحب أبرز ترجمة لكتاب " بروكلمان " تاريخ الأدب العربى ، حيث ترجمه من الألمانية إلى العربية . وكان عامر منذ صغره محبا للقراءة ، ويعتبر أن أفضل ما ورثه عن والده مكتبة أدبية وإسلامية وتراثية نادرة تنهل علماً كثيراً ، وحصل على الماجستير عام ١٩٧٧ والدكتوراه عام ١٩٨١م ، وأخيرا يمكن القول أن الدكتور عامر يعتبر الامتداد المعاصر للمدرسة المحمدية الشاذلية المعبرة عن التصوف

الأول مسلم مؤمن بالله تعالى، ومن ثم فالإسلام جاء ليهدى ويرشد ويطمئن قلب الخلق ، فلا يمكن أن يكون المهتدى بالإسلام منحرفاً نفسياً ؛ لأنه متمسك ومتمثل لكتاب الله تعالى وسنته ، وتلك هى الهداية الربانية لقلب ونفس العابد »[١].

ويحاول أبوالوفا التفتازانى أن يرسم صورة عامة واضحة المعالم للطريق الذى يسلكه الصوفى بوجه عام ، وأن يصنف هذه الحالات الوجدانية التى ترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً ، بحيث يخضع التصوف لقانون سيكولوجى عام يمكن أن يوحد المتصوفة على اختلافهم[٢] ، ويحلل التفتازانى حالات المتصوفة النفسية في أربعة أسس يضع لنا من خلالها سيكولوجية التصوف وهي التى قسمت مباحث هذا البحث إليها وهى :-

- المبحث الأول :- حالة الاستعداد النفسى الصوفى .
- المبحث الثانى :- طبيعة العاطفة الصوفية .
- المبحث الثالث :- أهمية وجود شيخ للمريد.
- المبحث الرابع :- المجاهدة النفسية .

منهج الدراسة-:

فى ضوء طبيعة الدراسة فقد استخدمت الباحثة كل من:

١- المنهج التحليلى :- استعانت الباحثة بهذا المنهج في تحليل نصوص الدكتور أبو الوفا التفتازانى فى مجال تناوله للدراسات النفسية للتصوف بغية فهمها وعرضها والوقوف على تفاصيل تحليله الصوفى.

٢- المنهج المقارن : تم استخدامه لمقارنة أفكار أبو الوفا التفتازانى بغيرها من افكار المتصوفة ، ومعرفة مدى تأثره بغيره .

خطـــــــــة الدراسة :

- اشتملت الدراسة على تمهيد وأربعة مباحث ، مع مقدمة، وخاتمة ، على النحو التالي :
- تمهيد :- أسباب اختيار موضوع البحث
- المبحث الأول:- حالة الاستعداد النفسى الصوفي.
- المبحث الثانى :- طبيعة العاطفة الصوفية.
- المبحث الثالث :- أهمية وجود الشيخ للمريد.
- المبحث الرابع :- المجاهدة النفسية.
- الخاتمة.
- المصادر والمراجع.
- ملخص البحث باللغة العربية.
- ملخص البحث باللغة الانجليزية.

=المصرى المعاصر (إيمان مصلحى ، بحث بعنوان التصوف بين علم النفس الصوفى وعلم النفس الحديث ، دراسة في فكر الدكتور عامر النجار ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالإسماعيلية مصر ، العدد ٤٣، ٢٠١٣، ص٧١-٧٣).

١) عامر النجار ، التصوف النفسى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠١٦، ص١٢٣.

٢) أبو الوفا التفتازانى ، سيكولوجية التصوف ، ص ٢٩٢.

المبحث الأول
حالة الاستعداد النفسى الصوفي

يعد أبو الوفا التفتازانى من أوائل من استخدموا مصطلح " الاستعداد النفسى الصوفى " في بحثه عن " سيكولوجية التصوف " [١] . والاستعداد النفسى الصوفي هى حالة وجدانية مركبة من عدة حالات وجدانية كالشك والقلق النفسى والكآبة والحزن العميق ، وقد تنشأ عن الإيحاء الخارجى أو الذاتى ، وغالبا ما تكون الصدمات النفسية عاملاً مهمّاً في ظهور هذا الاستعداد النفسى للتصوف ، وهذا الاستعداد فيما يرى التفتازانى يظل كامناً في الفرد إلى أن تتاح له فرصة الظهور ، وقد يظهر نتيجة للتأمل والتفكير الفلسفى في حقيقة الكون ومصير الإنسان[٢].

وهذا الاستعداد يبدأ بنوع من القلق النفسى وينتهى بنوع من الاستقرار النفسي ، وقد يسيطر على المتصوف شهوراً طويلة كما هو الحال عند الغزالى[٣] ، والذى يقارنه التفتازانى بالقديس أوغسطين[٤].

القلق فيما يرى أبو الوفا التفتازانى من خلال الخبرة المباشرة هو الخوف من أمور يعلمها الإنسان سواء من الماضى أو من الحاضر، أو من الأمور التى يجهلها ويتوقع حدوثها في المستقبل ، ويستشهد التفتازانى في هذا الصدد بكلام الحارث المحاسبى[٥] عن أسباب الحزن والقلق « الحزن على وجوه : الحزن على فقد أمر يحب الإنسان وجوده ، وحزن مخافة أمر مستقبل ، وحزن لما أحب من الظفر بأمر فيتأخر عن مراده ، وحزن يتذكر من نفسه مخالفات الحق فيحزن »[٦] .

يصنف التفتازانى الحزن إلى أربعة أسباب من كلام المحاسبى :-

---

١) محي الدين عبد الحميد طاهر : الزمان النفسى دراسة سيكولوجية للزمان عند صوفية الإسلام ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٩٢م ، ص١٢٣.

٢) أبو الوفا التفتازانى : سيكولوجية التصوف ، ص٢٩٣.

٣) الغزالى : هو أبو حامد محمد الغزالى الطوسى النيسابوري الصوفي الشافعى الأشعرى ، أحد أعلام عصره وأشهر علماء المسلمين في القرن الخامس الهجرى ، (١٠٥٨م- ١١١١م) كان فقيهاً وأصولياً وفيلسوفاً، وكان صوفي الطريقة ، شافعى الفقه ، وكان على مذهب الأشاعرة في العقيدة ، وقد عرف من مؤسسى المدرسة الأشعرية في علم الكلام ، وأحد أصولها الثلاثة بعد أبى الحسن الأشعري ، لقب الغزالى بألقاب كثيرة في حياته ، أشهرها " حجة الإسلام" وله عدة مؤلفات منها إحياء علوم الدين ، تهافت الفلاسفة ومقاصد الفلاسفة ، والمنقذ من الضلال وغيرها (عبد المنعم الحفنى ، الموسوعة الصوفية ، ص٥٣٩).

٤) أبو الوفا التفتازانى : مجاهدة النفس علاج للقلق النفسى ، مقالة نشرت بمجلة التصوف الاسلامى ، العدد ١٠٠، مايو ١٩٨٧م ، ص٥ .

٥) المحاسبي (٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م) الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله: من أكابر الصوفية. كان عالما بالأصول والمعاملات، واعظاً مبكيًّا وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم. ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد. وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره. من كتبه (آداب النفوس - خ) صغير، و(شرح المعرفة - خ) تصوف، و(المسائل في أعمال القلوب والجوارح - ط) رسالة، و(المسائل في الزهد وغيره - خ) رسالة و (البعث والنشور - خ) رسالة، و(مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه - خ) و(الرعاية لحقوق الله عزوجل - ط) و(الخلوة والتنقل في العبادة - ط) و(معاتبة النفس - خ) في الأزهرية، و(كتاب التوهم - ط) و(رسالة المسترشدين – ط) ومن كلامه: خيار هذه الأمة الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ولا دنياهم عن آخرتهم {طبقات الصوفية - خ - وتهذيب التهذيب ٢: ١٣٤ وابن الوردي ١: ٢٢٧ وصفة الصفوة ٢: ٢٠٧ وميزان =الاعتدال ١: ١٩٩ وحلية الأولياء ١٠: ٧٣ والفهرس التمهيدي. وابن خلكان ١: ١٢٦ وتاريخ بغداد ٨: ٢١١ والأزهرية ٣: ٦٣٢.}

٦) أبو الوفا التفتازانى : مجاهدة النفس علاج القلق النفسى ، بحث نشر بمجلة التصوف الإسلامى ، العدد ٩٩ أبريل ١٩٨٧م ، ص٤-٥.

- حزن ينشأ عن فقد الإنسان لشيء يحب وجوده ، كفقده لشخص عزيز عليه أو مالا ، أو منصباً ، أوجاها ، أو فقده لصحته أو ما شابه ذلك .
- حزن ينشأ مخافة أمر مستقبل ، وهذا يعنى أن يتفكر الإنسان في أمور قد تحدث في المستقبل يكرهها ، وهذا على سبيل التخيل ، فإن المستقبل لا نعلمه ، وإنما نتوقع فيه أموراً قد تحدث وقد لا تحدث .
- حزن ينشأ عن حب الإنسان أن ينال شيئاً فيتأخر حدوث هذا الشيء ، كأن يتوقع الإنسان شغل وظيفة فيتأخر شغله لها فيقلق لذلك .
- حزن ينشأ عن تأنيب الضمير وذلك عند وقوع معصية أو مخالفة من الإنسان ، فيؤنبه هذا الضمير على وقوعها[١] .

هذا عن القلق النفسى الذى يُعرف سببه - فيما يرى أبو الوفا التفتازانى - وأما القلق الصوفى فلا يعرف له سبب فهو القلق الذى تكمن أسبابه في اللاشعور[٢].

فى الحقيقة إن القلق الصوفى يختلف عن القلق المرضى ، إذ إن القلق الصوفى تجربة ذاتية يعانيها الصوفى ، لتصفية وقته النفسى من الاضطراب والتلون الواقع فيه ، وانتفاء الصفات الذميمة منه، وهو مؤقت ، أما القلق المرضى فنلاحظه عند المريض النفسى ، وله ما يشبه الدوام إذا لم يعالج[٣].

ويرى أبو الوفا التفتازانى أن القلق الصوفى يختلف عن القلق الوجودى الذى يتحدث عنه الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر[٤] ، إذ إن القلق الوجودى مبعثه أن الإنسان لابد أن يعثر لنفسه على على ماهيته ، فوجوده تحول مستمر ، يكون الإنسان فيه خالقاً لذاته باستمرار ، فالإنسان عند الوجوديين ، حر في اختيار سلوكه ، وهو يفسر الأشياء كما يريد ، هو محكوم عليه في كل لحظة أن يخترع نفسه بعد وجوده ، وهذا الوجود يعانى منه الإنسان ، القلق النفسى الذى ينتج – في رأى سارتر – من أن الإنسان قد قُذِف به في هذا العالم ، دون أن يدرى لذلك سبباً ، وهو شعور مبعثه ضرورة اختيار

---

١) أبو الوفا التفتازانى : لماذا تشعر بالقلق ، بحث نشر بمجلة التصوف الإسلامى ، العدد الثانى ، ١٩٩٧م ، ص٦.

٢) أبو الوفا التفتازانى : لماذا تشعر بالقلق ، بحث نشر بمجلة التصوف الإسلامى ، ص٧.

٣) محي الدين عبد الحميد طاهر : الزمان النفسى دراسة سيكولوجية للزمان عند الصوفية الإسلام ، ص١٩.

٤) جان بول سارتر (جان پول شارل ايمارد سارتر-1905 ١٩٨٠) هوفيلسوف وروائي ومؤلف مسرحي بدأ حياته العملية أستاذاً. درس الفلسفة في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية . حين احتلت ألمانيا النازية فرنسا، انخرط سارتر في صفوف المقاومة الفرنسية السرية. وبعد الحرب أصبح رائداً لمجموعة من المثقفين في فرنسا. وقد أثرت فلسفته الوجودية، التي نالت شعبية واسعة، على معظم أدباء تلك الفترة. منح جائزة نوبل للآداب عام.1964تميزت شخصياته بالانفصال عنه وبدت وكأنها موضوعات جدال وحوار أكثر منها مخلوقات بشرية، غير أنه تميز بوضع أبطاله في عالم من ابتكاره.
تميزت موضوعات سارتر الدرامية بالتركيز على حالة أقرب إلى المأزق أو الورطة. ومسرحياته " الذباب" و" اللامخرج" و "المنتصرون" تدور في غرف التعذيب أو في غرفة في جهنم أو تحكي عن طاعون مصدره الذباب. وتدور معظمها حول الجهد الذي يبذله المرء ليختار حياته وأسلوبها كما يرغب والصراع الذي ينتج من القوى التقليدية في العالم التقليدي الذي يوقع البطل في مأزق ويحاول محاصرته والإيقاع به وتشويشه وتشويهه. وإذا كان إدراك الحرية ووعيها هي الخطوة الأولى في الأخلاقية السارترية فإن استخدامه لهذه الحرية وتصرفه بها - التزامه- هو الخطوة الثانية. فالإنسان قبل أن يعي حريته ويستثمر هذه الحرية هو عدم أو هو مجرد "مشيئ" أي أنه أقرب إلى الأشياء منه إلى الكائن الحي. إلا أنه بعد أن يعي حريته يمسي مشروعاً له قيمته المميزة.(التفتازانى ، الإسلام ووجودية سارتر، بحث نشر في الجمعية الفلسفية المصرية ، العدد الأول ، السنة الأولى يونيو ١٩٩٢، ص١٩.)

الإنسان في الوقت الذى لا يعرف فيه أيضا ، هل أساء اختياره ، أم أحسنه ، فالإنسان في رأيه محكوم عليه دائما بالاختيار ، والإرادة ، وهذا هو مبعث قلقه ، وهو قلق مؤلم ، أما قلق الصوفى يختلف عن قلق الوجودى ، من حيث إن القلق عند الوجودى يرتبط بفلسفة خاصة عن الوجود الإنسانى ، بصفته وجوداً حائراً[١] .

فى حين أن القلق الصوفي – فى رأى أبي الوفا التفتازانى- هو الذى يرتبط بالزمان النفسى ، من حيث إنه الشعور بالخوف من أمور يعلمها الإنسان ، سواء من الماضى ، أو من الحاضر ، أو من أمور يجهلها ويتوقع حدوثها في المستقبل .

ويرى التفتازانى أن هناك ثلاثة عوامل باعثة على القلق هى فقدان الإيمان ، وعبادة غير الله وعدم التخلق بأخلاقيات الدين .

١- **فقدان الإيمان** :- يعد فقدان الإيمان فيما يذهب التفتازانى ظاهرة من ظواهر العصر ، ولها عدة صور ، فهناك الشك الفطري الذى يمر به الإنسان في بداية حياته حين يفكر في أمر الكون أو يفكر في نفسه ، وهذا لا خوف منه ولا ضرر ، لأن كل واحد منا تقريبا عانى من هذا الشك فهو شك عابر ، ولكن سرعان ما تجاوزه إلى الإيمان ، وهناك شك في حقائق الإيمان ، ولكنه على أساس فلسفى[٢] .

٢- **التوجه بالعبادة لغير الله** :- فهو مترتب على السبب الأول ، لأن الملحد لا يتوجه بالعبادة إلى الله ، مادام ينكر وجود الله أصلا ، ولا معنى لأن يتعبد أو يمارس تكاليف الدين وقد يتجه إلى عبادة الأشخاص أو عبادة المال أو الجاه أو السلطان أو الملذات والشهوات ، أو غير ذلك ، وهذا يوقعه في أنواع من القلق متعددة الصور وذلك من خلال تعامله مع من يحيطون به ، واصطدامه بهم ، أو الاعتماد عليهم من دون الله والذل لهم[٣] .

٣- **فقدان التخلق بأخلاق الدين** :- يعنى أن الإنسان أصبح ملتزماً بقيم معينة وبأنماط معينة من السلوك تسللت على إيمانه ، فإذا تجنب مثل هذه القيم الصحيحة شعر بالقلق ، وما القلق في رأى التفتازانى إلا ثمرة الصراع بين الدوافع الأولية للإنسان أهوائه وعواطفه وبين القيم الخلقية التى يراها محققة لإنسانيته والتى يجب عليه أن يلتزم بها في معاملته لنفسه أو لأسرته أو لمجتمعه[٤] .

ويرى أبو الوفا التفتازانى أن علاج هذا النوع من القلق الذى ينشأ عن معتقدات فاسدة وأيديولوجيات منحرفة هو بالرجوع إلى الدين ، والالتزام بالإيمان الصحيح الذى دعا إليه الإسلام[٢] . بمعنى أن التدين الواعى الذى يرتبط فيه الإنسان بخالقه برباط روحى وثيق يعد علاجاً للقلق النفسى الذي يصيب الإنسان ، وليس الإيمان في الإسلام نطق بالشهادتين " لا إله إلا الله محمد رسول الله " فقط ، بلسانه مادام لا يعمل بما تقتضيه الشهادتان ، حيث إن الإيمان الحقيقى هو الذى حدده الرسول ﷺ بقوله : «الايمان ما وقر في القلب وصدقه العمل »[٥].

---

١) أبو الوفا التفتازانى : الإسلام ووجودية سارتر ، ص٩-١٠.
٢) أبو الوفا التفتازانى : لماذا تشعر بالقلق ، بحث نشر في مجلة التصوف الإسلامى ، ص٥.
٣) المرجع نفسه ، ص٧.
٤) المرجع نفسه ، ص٧ .
٥) رواه ابن النجار والديلمى في مسند الفردوس عن أنس ، وأشار السيوطى فى الجامع الصغير إلى ضعفه وقال النسائى متروك وقال ابن عدى " مجمع على ضعفه ".

وهذا يعنى - فيما يرى التفتازانى - أن يقترن الإيمان بالعمل ، ويستشعر فيه الإنسان أنه مع الله فى كل وقت من أوقاته ، فينتفى عنه القلق والحزن وهذا ما أشار إليه الله فى قوله تعالى : **(إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)**[١]

فالتوحيد الحقيقى - فيما يرى أبو الوفا التفتازانى - هو ألا يكون لغير الله فى قلبك منزلة ، وأن لا يتوجه بالعبادة إلى غيره ، فهذا هو الإخلاص في التوحيد ، أما إذا أشركت إلى جانب الله أصحاب الجاه أو أصحاب السلطان ، أو شهواتك أو نزواتك فهذا ليس توحيداً خالصاً ، فالتوحيد يقتضى إذن تجريداً[٢] بقصد التقرب إلى الله بعيداً عن كل الشوائب ، أما أولئك الذين يتجهون بالعبادة إلى غير الله لابد لهم من أن يستشعروا القلق حقًّا ؛ لأن قلوبهم متعلقة بغير الله بما هو فان .لابد من أن ترتاض النفس الإنسانية على نوع من التوازن النفسى ، ذلك أن أهل الدنيا تتعلق قلوبهم بها يفرحون بشدة حين تقبل عليهم الدنيا ، ويحزنون بشدة حين تزول عنهم ، وهم بين تعاقب الفرح الشديد والحزن الشديد ، يعانون عذاباً نفسيًّا لا يطاق ، وهذا ما أشار إليه الله تعالى بقوله :**(لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ)** [٣] ، وقد عبر ابن عطاء الله السكندرى عن هذا المعنى بقوله : « ليقل ما تفرح به يقل ما تحزن به»[٤] ؛ لأنه إذا كان الفرح شديداً كان الحزن شديداً كذلك ، والإنسان لا ينبغى أن يفرح إلا بما هو حقيقى فلا يتعلق قلبه بما هو فان وزائل ، والفرح الحقيقى هو بما مَنَّ الله علينا لقوله تعالى : ***(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)*** [٥].

كما يرى أبو الوفا التفتازانى كغيره من الصوفية أن الالتجاء إلى الله يُخرج الإنسان من أزماته النفسية ، وقد قال الله تعالى لرسوله الكريم : **(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)**[٦]. فعلاج ضيق الصدر فيما يرى أبو الوفا التفتازانى بالالتجاء إلى الله والاعتماد عليه ، كما وصفه الله تعالى يكون بالتسبيح والحمد والسجود والعبادة .

وذكر الله يدعو إلى اطمئنان القلب عملاً بقوله تعالى : **(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)**[٧]، والذكر نوعان فيما يرى أبو الوفا التفتازانى فردي وجماعي ، والفردي هو ترديد مصحوب بالإيحاء الذاتى ، وتركيز الانتباه في موضوع واحد يسمو عن عالم المادة ، وهو الله ، وبلزوم التفكير العميق المتصل فى هذا الموضوع بالإضافة إلى المجاهدات البدنية الأخرى يفقد الصوفى شعوره بآنيته شيئاً فشيئاً ، وفى هذه الحالة ينتهى صراعه النفسى بين بدنه ودوافعه الطبيعية ومثله الخلقى الأعلى الذى أراد تحقيقه ابن عطاء الله [٨].

---

١) سورة التوبة: الآية ٤٠.

٢) التجريد يعنى أن يترك السالك الاشتغال بأمر الدنيا ، فلا يأخذ من عرض الدنيا شيئاً ، ولا يطلب على ما ترك منها عوضاً من عاجل ولا آجل..بل يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالى لا لعلة غيره..ولا لسبب سواه. ويتفرغ بالكلية لسلوك الطريق الصوفى ويسمى حينئذ بالمتجرد وعكسه التسبب وهو الاشتغال بأمور الدنيا (عبد المنعم الحفنى : المعجم الصوفى ، مادة تجريد ، ص ٤٨، دار الرشاد القاهرة ، ١٩٩٧م).

٣) سورة الحديد : الآية ٢٣.

٤) ابن عطاء الله ، الحكم ، ص٢٣٣ .

٥) سورة يونس : الآية ٥٨ .

٦) سورة الحجر: الآيات من ٩٧- ٩٩ .

٧) سورة الرعد : الآية ٢٨.

٨) مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح ، مصر ١٣٢٢هـ ، ص٤.

وهكذا حتى يصل المتصوف من القلق النفسى إلى حال طمأنينة النفس التى تعنى سكون النفس وراحتها ([1]). وهى كما قال الطوسى [2]: « حال وضع ولا تكون إلا بعد رجوع عقله ، وصلاة ذكره ، وثبت حقيقته »[3] وهذا لا يكون إلا فى نهاية الطريق إلى الله .

وإذا كان الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر فى عصرنا يقول : " نحن قلق " ، فإنه لم يتجاوز أبدا هذا القلق إلى الإيمان ، وإنما رصد حالة القلق فقط وجعلها ملازمة للإنسان فكأنه نظر إلى الإنسان من زاوية القلق ، وهذه نظرة غير طبيعية لأن الإنسان ليس قلقاً فقط ، وإنما عليه أن يتجاوز القلق إلى الإيمان بشيء[4] .

ويستدل أبو الوفا التفتازانى على الطمأنينة من خلال مواضع كثيرة من القرآن الكريم منها قوله تعالى : **(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)** [5] ، والإشارة في الآية إلى أن ذكر الله باللسان والقلب ، واستشعار وجوده معنا فى جميع الأحوال ، كل هذه أمور باعثة على اطمئنان النفس .وهذا كله فيما يرى التفتازانى مستمد من آداب القرآن فى قوله تعالى : **(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)** [6]. ففي القرآن شفاء للنفوس حين يمدها بالعقائد الصحيحة ،

---

١) **الطمأنينة لغة** :هي الاسم من الاطمئنان الّذي هو مصدر قولهم: اطمأنّ الشّيء يطمئنّ إذا سكن ، وذلك مأخوذ من مادّة (ط م ن) بزيادة الهمزة، يقال فيه: اطمأنّ المكان إذا ثبت واستقرّ. واطمأنّ الرّجل اطمئنانا وطمأنينة أي سكن، قال أبو إسحاق في قوله تعالى: فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ (النساء/ ١٠٣) ، أي إذا سكنت قلوبكم، يقال: اطمأنّ الشّيء إذا سكن وطأمنته وطمأنته إذا سكّنته. وقوله- عزّ وجلّ-: الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ (الرعد/ ٢٨) معناه: إذا ذكر الله بوحدانيّته آمنوا به غير شاكّين.
وقيل في تفسير قوله تعالى: يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ هي الّتي قد اطمأنّت بالإيمان وأخبتت لربّها.وقال الرّاغب: معناه: هي ألّا تصير أمّارة بالسّوء، واطمأنّ وتطامن متقاربان لفظاً ومعنى .
أما **الطمأنينة اصطلاحا** : قال الرّاغب: الطّمأنينة: هي السّكون بعد الانزعاج، وقال الكفويّ: الطّمأنينة في الشّرع (أي عند الفقهاء) القرار بمقدار التّسبيحة في أركان الصّلاة ، وقال صاحب المنازل (الهرويّ) الطّمأنينة: سكون يقوّيه أمن صحيح شبيه بالعيان . وعن الفرق بين الطمأنينة والسكينة : قال الفيروز آباديّ: الطّمأنينة والسّكينة كلّ منهما تستلزم الأخرى. لكنّ استلزام الطّمأنينة السّكينة أقوى من العكس. ثمّ إنّ الطّمأنينة أعمّ من السّكينة. وهي على درجات: طمأنينة القلب بذكر الله. وهي طمأنينة الخائف إلى الرّجاء، والطّمأنينة: سكون أمن فيه استراحة أنس.والسّكينة تكون: حيناً بعد حين، والطّمأنينة لا تفارق صاحبها وكأنّها نهاية السّكينة (الراغب الأصفهانى : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، تحقيق محمد خليل غيتانى ، بيروت ، دار المعرفة، ط٤ ، ٢٠٠٥م ، مادة (طمن) / ابن منظور : لسان العرب مجلد ١٣ ، ص ٢٦٨ / الكفوي ، الكليات ، تحقيق : عدنان درويش ومحمد المصرى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط ٢، ١٩٩٣م ، ص ٤٦٤ / الفيروزآبادى : القاموس المحيط ، تحقيق : مكتب تحقيق التراث ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط ٥ ، ١٩٩٨م ، مادة (طمن)).

٢) الطوسى:- هو عبد الله بن على الطوسى ، الملقب أبو نصر السراج (ت٣٧٨هـ - ٩٨٨م) ، كان شيخ الصوفية ، على طريقة السنة. ملقب بطاووس الفقراء وتنقل بين بلاد كثيرة، منها: القاهرة، وبغداد، ودمشق، والرملة ، ودمياط ، والبصرة ، وتبريز، ونيسابور . له كتاب: « اللمع في التصوف »، وهو بمثابة موسوعة في تاريخ التصوف الإسلامي وطبقات الصوفية وعلومهم ومصطلحاتهم وأقوالهم وأحوالهم. ويعد أستاذاً للهجويري مؤلف "كشف المحجوب "، ولأبي عبد الرحمن السلمي مؤلف « طبقات الصوفية » الذي تتلمذ عليه القشيري صاحب " الرسالة القشيرية ". (عمر رضا ، معجم المؤلفين ، ج٢، ص٢٦١) .
٣) الطوسى ، اللمع ، تحقيق عبد الحليم محمود ، القاهرة ١٩٦٠م ، ص٩٨ .
٤) أبو الوفا التفتازانى : الإسلام ووجودية سارتر، بحث نشر في الجمعية الفلسفية المصرية ، العدد الأول ، السنة الأولى يونيو ١٩٩٢، ص٢٠.
٥) سورة الرعد : الآية ٢٨ .
٦) سورة الإسراء : الآية ٨٢ .

ويدفعها إلى الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ، من أجل بلوغ الكمال الأخلاقى الذى دعا إليه الإسلام[١] . ومن الأحاديث : قوله ﷺ عن أبي ثعلبة الخشنيّ- رضي الله عنه- قال : (قلت يا رسول الله أخبرني بما يحلّ لي ويحرم عليّ. فقال النّبيّ ﷺ : « البرّ ما سكنت إليه النّفس واطمأنّ إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النّفس ، ولم يطمئنّ إليه القلب، وإن أفتاك المفتون »[٢].

وقال علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- لابنه الحسن: ابذل لصديقك كل المودة، ولا تطمئن إليه كل الطُّمَأْنِينَةِ ، وأعطه كل المواساة ، ولا تفض إليه بكل الأسرار[٣].

المبحث الثاني
طبيعة العاطفة الصوفية

للعاطفة أثر له خطورته فى التجربة الصوفية ، وإلى عنصر العاطفة فيها ترجع مظاهر الشمول والاستغراق والفناء، وما إلى ذلك من الأحوال ، إذ تتحول مرحلة الاستعداد النفسى فيما يرى التفتازانى إلى مجموعة ميول قوية مشعور بها نحو هدف معين ، وقد تكون هذه الميول مصحوبة بانفعالات واستجابات مختلفة ، كما تكيف سلوك المتصوف تبعاً لاتجاه هذه الميول ، هذا وتكون هذه الميول فى تعيين هدفها هو ما يسميه بتكوين العاطفة ، وهى المرحلة الثانية من مراحل التصوف[٤] .

والحب الصوفى فيما يرى أبو الوفا التفتازانى هو الحالة الوجدانية التى تصدر عنها سائر الحالات الأخرى ، وهو المحور الرئيسى الذى تدور حوله موضوعات التصوف الإسلامى والمسيحى[٥] على السواء ، وأن هذه العاطفة الصوفية من نوع خاص من العواطف التى تتخذ المثل

---

١) التفتازانى : أثر السلوك الإسلامي في علاج بعض الأمراض ، مقالة نشرت بمجلة التصوف الإسلامى ، العدد ٣ ، السنة ١٣ ، شعبان ١٤١١هـ ، مارس ١٩٩١م ، ص٦ .

٢) رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده ج ٤ تحت رقم (٢٢٧) ، والدارمي فى مسنده ج ٢ ، تحت رقم (٢٤٦) بإسناد حسن عن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: جئت تسأل عن البر؟ قلت: نعم. فقال: استفتِ قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك) .

٣) ابن عبد البر : بهجة المَجَالس وأُنس المُجَالِس ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

٤) أبو الوفا التفتازانى : سيكولوجية التصوف ، ص٢٩٤.

٥) المذهب الصوفي، على الرغم من اختلاف طريقته بين الديانات المختلفة السماوية منها والأرضية، إلا أنه ارتبط عند الجميع بمبادئ واحدة، وهي الحب، والتوق للمحبوب والزهد في متاع الدنيا والتأمل كطريقٍ للوصول للذات الإلهية، وعبر كافة المتصوفة عن تلك الرغبة في لقاء المحبوب عن طريق الشعر والأدب، والكتابات الخاصة بالمتصوفة، ومذكراتهم، سواء كان هذا التصوف إسلاميًا أم مسيحيًا، فيقول «ولتر ستيس» في كتابه التصوف والفلسفة: «التجربة الصوفية واحدة عند جميع المتصوفة ، إذ تتفق التجارب الصوفية التي رواها: المسيحيون والمسلمون، واليهود والهندوس والبوذيون، وأيضًا المتصوفة الذين لم يتبعوا عقيدة دينية محددة، لكنها تختلف في تأويل كل متصوف لتجاربه تأويلًا عقليًا مستمدًا من خصائص ثقافية » .

وفي كتاب الدكتور محمد مصطفى حلمي «الحب الإلهي في التصوف الإسلامي» يقول: إن هناك حبين، حبًا إلهيًا، وحبًا نبويًا، والحب الإلهي هو الذي يتخذ فيه المُحب موضوع حُبه من الذات الإلهية، ويتحدث فيه عن الحب المتبادل بين الله والإنسان، أما الحب النبوي فهو الذي يستقي موضوع حبه من النور المحمدي الذي هو

العليا موضوعاً لها[١] .

وحب الله عاطفة في النفس الزكية ، تنزع بها إلى تفهم حقيقتها والشوق إلى التعرف على خالقها ويزداد الحب كلما ازداد الإيمان ، وبمقدار كمال النفس يكون الحب ، وعلى قدر الحب تكون السعادة ويكون النعيم وحب الله تعالى يسمو بالذوق الإنسانى ، ويحول نفس صاحبه راضية مطمئنة .

المحبة فيما يرى الغزالى« هى الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات ، فما بعد المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا ، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد »[١] .

أسبق في الوجود من كل موجود، وقد عبر شعراء المتصوفة عن كلا الحبين في أشعارهم، ولكنهم خلطوه برموز الحُب الإنساني من عبارات الغزل والخمر، التي اتخذوها كاستعاراتٍ مكنية ومجازات.

يقول الدكتور مصطفى حلمي: «لقد التمسوا ألفاظهم وعباراتهم من معجم الشعر الغزلي والخمري، الذي خلفه المحبون من العذريين الذين تغنوا في شعرهم عن الحب الأفلاطوني العفيف على نحو ما فعل مجنون ليلى وجميل بثينة»، ويستكمل: «فالعشق والصبابة والهيام، والشوق والأسى والغرام، والصد والرد، ومجالس الشراب والندمان، والسُكر ونشوته، كل هذا وغيره من الألفاظ الغزلية والخمرية نجده منبثًا هنا أو هناك في روائع الشعر = الصوفي الإسلامي»، والتي قد فسرها بأن من يقف على شعر هؤلاء، دون أن تكون نفسه قد صفت من شهواتها ونزواتها سيتخذها كما اتخذها عليهم المتعصبون بافتراض سوء النية والفطرة السيئة، ولكن هذه الألفاظ والعبارات الغزلية إنما هي استعارات ورموز لن تفهمها قلوب هؤلاء الغارقين في بحور المادية، وظلمات الحياة الحسية.

أما الحب الإلهي في التصوف المسيحي، فيقول عنها القديس بولس: إن الفضائل الإلهية ثلاث: الإيمان، والمحبة، والرجاء، والإيمان به نصل للحقيقة والمعرفة، التي يعرف الله بها ذاته الممنوحة للإنسان بنوع جزئي، فيقول المونسينيورغي: «بالإيمان يصبح نور الله نورنا وحكمته حكمتنا وعلمه علمنا وروحه روحنا وحياته حياتنا». الإيمان يوسع دائرة معرفتنا بحقيقة الله، وأنه موهبة يجب على المبتدئين أن يجاهدوا كثيرًا ليثبتوا إيمانهم.

= أما المحبة فهي من الله ، وهى قمة الفضائل ، فبما أنه ملأ الكيان والكمال والصلاح فهو محبوب للغاية. يقول يسوع في إنجيل متى: «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك»، والتي يشرحها القديس فرنسيس سالس أن علينا أن نجعل تلك المحبة لله تفوق كل محبة في أنفسنا فتتفوق على أهوائنا.

أما الرجاء فهو لازم لبلوغ غاية الخير المرجوة، فهو يجرد النفس من كل الرغبات المادية بتضرع إلى غاية كبرى وهي السعادة الأبدية.

ويعتبر سفر نشيد الإنشاد هو خير ما عبر عن تلك التجربة الصوفية المسيحية الروحانية، كشعر صوفي خالص تمامًا، ككتابات ابن الفارض، وابن عربي، كما أنه تعرض مثلهم لنفس الاتهامات التي لاحقت الشعراء الصوفيين لاستخدامهم الاستعارات الغزلية والخمرية.:

اِجْعَلْنِي كَخَاتِمٍ عَلَى قَلْبِكَ، كَخَاتِمٍ عَلَى سَاعِدِكَ. لأَنَّ الْمَحَبَّةَ قَوِيَّةٌ كَالْمَوْتِ. الْغَيْرَةُ قَاسِيَةٌ كَالْهَاوِيَةِ. لَهِيبُهَا لَهِيبُ نَارٍ لَظَى الرَّبِّ.

مِيَاهٌ كَثِيرَةٌ لاَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْفِئَ الْمَحَبَّةَ، وَالسُّيُولُ لاَ تَغْمُرُهَا. إِنْ أَعْطَى الإِنْسَانُ كُلَّ ثَرْوَةِ بَيْتِهِ بَدَلَ الْمَحَبَّةِ، تُحْتَقَرُ احْتِقَارًا.

من هنا نجد التشابه الكبير بين التجربة الصوفية المسيحية والإسلامية، حيث يعتمد الاثنان على تطهير النفس مما علق بها من الأهواء والشهوات المادية، من أجل الوصول إلى تجلي الله في النفس، وهو ليس تجليًا ماديًا، وإنما هو تجلٍّ أخلاقى في اتباع تعاليمه . (ولتر ستيس : التصوف والفلسفة ، ترجمة : إمام عبد الفتاح ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، د.ط ، ١٩٩٩م ، ص٥١ ، محمد مصطفى حلمى : الحب الإلهى في التصوف الإسلامى ، دار القلم ، مصر ، ١٩٦٠م ، ص٥ / عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية في الإسلام ، مطبعة المعرفة ، القاهرة ، ط١، ١٩٦٦م ، ص٦٠ / كتاب مقالات روحية نشرت في جريدة الجمهورية للبابا شنودة الثالث).

١) المرجع نفسه ، ص٢٩٤ .

والحب الصوفى - فيما يرى أبو الوفا التفتازانى- يمر بمراحل مختلفة متصلة ، فالمحبة ميل الطبع إلى الشيء لكونه جميلاً، فإن تأكيد الميل لقوى النفس يلزم القلب كلزوم العزيمة ، فإذا قوى سمى عشقاً أى إفراطاً في المحبة ، فإذا قوى سمى شغفاً ، لأنه يصل إلى شغاف القلب وداخله ، فإذا قوى سمى تتيمًا أى تعبداً لأنه يغمر المحب ويصيره عبداً للمحبوب فيكون المحب متيماً مأموراً مأسوراً [٢].

ويذكر أبو الوفا التفتازانى أن هذه العاطفة " الحب" مكتسبة أى بمعنى أنها تنمو بتأثير البيئة التى يعيش فيها المتصوفة كالخلوة ، ومجال الأذكار والاجتماعات ، فتعتبر هذه البيئة هى بمثابة العوامل التى تعمل على تنمية العاطفة الصوفية وتقويتها[٣] . إذن فالحب هو فطرة لكنه ينمو بالاكتساب.

فقد ذكر الله تعالى الحب المتبادل بين العبد والرب في قوله تعالى : **(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)**[٤] ، ويربط الله بين الحب وقوة الإيمان في قوله تعالى **(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ)**[٥] ، ويربط سبحانه تعالى بينه وبين حب الرسول ﷺ وطاعته في قوله تعالى :**(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)** [٦].

وقال الرسول ﷺ :« لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين »[٧] .

ولقد جرد الصوفية الحب عن المطامع والشهوات ، وأخلصوا الحب لله تعالى ، فليس فى حبهم علة ، ولا لعشقهم دواء إلا رضى مولاهم ، تقول رابعة العدوية رحمها الله تعالى :

كلهم يعبدون من خوف نار ويرون النجاة حظّا جزيلا
أو لكى يسكنوا الجنانِ فيحظوا بكؤوس ويشربوا السلسبيلا
أو يقيموا بين القصور جميعا أنا لا أبتغى بحبِّى بديلا

معنى ذلك أنها لا ترى الحياة إلا حبًّا فى الله ، ووقوفاً عند أوامره ونواهيه ، لأن المحب لمن يحب مطيع . وأحباب الله على الدوام ألسنتهم بذكره مشغولة ، وقلوبهم بمحبته موصولة ، وأعينهم إلى جمال مخلوقاته ناظرة ، وأرواحهم إلى حضرته طائرة ، فهم ملوك الدنيا ، وأسياد الآخرة ، هذا هو الحب الحقيقى لله . وأنشدت رابعة تقول :

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد في ذا وذاك[٨].

والحقيقة أننا لا نكاد نجد صوفيًّا لم يتعرض لموضوع الحب الإلهى ، وإن كان من الثابت أنه قد اشتهر منهم اثنان : رابعة العدوية [١] ، وعمر بن الفارض [٢].

---

١) الغزالى : إحياء علوم الدين ، ص٤٣.
٢) سليمان سامى محمود : الحب الإلهى ، دار الخلود للتراث ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠٠٦م، ص١٣.
٣) أبو الوفا التفتازانى : سيكولوجية التصوف ، ص٢٩٥ .
٤) سورة المائدة : الآية ٥٤ .
٥) سورة البقرة : الآية ١٦٥
٦) سورة آل عمران : الآية ٣١ .
٧) رواه مسلم فى صحيحه ، كتاب الايمان تحت رقم (٩٢) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ □ : " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" .

٨) أبو الوفا التفتازانى ، مدخل الى التصوف الاسلامى ، ص٨٨٤.

وكان حب ابن الفارض لله ثمرة معاناة حقيقية ، يقول الصوفية : « من ذاق عرف» [٣] ، ويعنون بذلك أن معارفهم وأسرارهم ومقاماتهم وأحوالهم ، أتت من تجربة صادقة ، يقول ابن الفارض[٤]:-

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

والحب الإلهى عند الصوفية ليس فيما يرى أبو الوفا التفتازانى شطحاً أو خيالاً ، وإنما هو ثمرة حقيقية للإيمان القوى والتدين العميق ، وينعكس أثره على حياة الفرد تهذيباً ، وعلى حياة المجتمع ارتقاء[٥] .

ويرى ابن الفارض أن تحقق المحب بشهود محبوبه وهو الله لا يكون إلا مع الفناء[٦] عما في الحياة الدنيا من زخرف وجاه ، وبل وعما في الحياة الأخرى من جنة ونعيم « بمعنى ألا يحب الله

---

١) هي أم الخير رابعة بنت إسماعيل البصرية ، مولاة آل عتيك الصالحة، رائدة الحب الإلهى، دفنت بظاهر القدس من شرقية على رأس جبل يسمى جبل الطور { ابن الملقن المصرى : طبقات الأولياء، تحقيق: نور الدين شريبه ، مكتبة الخانجى، ط/ ١ ، القاهرة، ١٩٧٣م ، ص ٤١٨ .

٢) يتّفق المترجمون على أنّ اسمه «عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي» (ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) وكنيته«أبوحفص» و«أبوالقاسم» وينعت بشرف الدين ويعرف بابن الفارض.. لقد ذكر حول لقبه بابن الفارض : (الفارض : بفتح الفاء وبعد الألف راء مفتوحة وبعدها ضاد معجمة، وهو الذي يكتب الفروض للنساء على الرجال ابن خلكان: وفيات الأعيان) (وأنّ أبا الشاعر كان يقوم بإثبات هذه الفروض فغلب عليه التلقيب بالفارض وعرف ابنه بابن الفارض ، ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار ابن كثير ، ط١، بيروت ١٩٨٦م ، ص١٢٣).

اختلفت الآراء حول مولد ابن الفارض فقد قال ابن خلكان : « كانت ولادته في الرابع من ذي القعدة سنة ست وسبعين وخمسمائة (٥٧٦ هـ) بالقاهرة"ابن الفارض، الديوان، تحقيق: د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٨م. ويرى ابن العماد بأنّه « ولد في ذي القعدة سنة ست وستين وخمسمائة ٥٦٦ ه(ابن كثير: البداية النهاية) .أما مصطفى حلمي الذي بحث كثيراً في هذا الموضوع فكانت وجهة نظره بهذه الصورة : «هذا كله من شأنه أن يسلمنا إلى نتيجة نهائية ، هي أننا نرجح التاريخ الأول وهو ما يذكره ابن خلكان، وذلك لأنّ ابن خلكان، بحكم معاصرته لابن الفارض يمكن أن يعدّ أوثق مصدر في هذه المسألة، وأكثر تحقيقاً لها من غيره (ابن منظور: لسان العرب) وأما في تاريخ وفاته، قد اتّفق جميع المترجمين على أنّه توفي في الثاني من جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة (٦٣٢ هـ) ودفن بالقرافة بسفح جبل المقطم عند مجرى السيل تحت المسجد المعروف بالعارض الذي هو أعلى جبل المذكورة (التهانوى: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم) ، ذكر المترجمون عن والد ابن الفارض أنّه من أكابر علماء مصر ويلزم ولده (الشيخ رضي الله عنه) بالجلوس معه في مجالس الحكم ومدارس العلم ، وقد كان زاهداً وورعاً، اتخذ زهده وورعه صورة عملية في آخر حياته حين نزل عن الحكم، ورفض منصب قاضي القضاة واعتزل الناس، وانقطع الى الله في قاعة الخطابة بالأزهر(الجرجاني : التعريفات) ، أجمع الذين ترجموا لابن الفارض على أنّه حموي الأصل، مصري المولد والدار والوفاة ولد بمصر، ونشأ فيها، وترعرع في ظلّها، وأقام الشطر الأكبر من حياته بها، ودفن بأرضها، فهو مصري في مولده، مصري في نشأته وتربيته، مصري في حياته ومماته (محمد مصطفى حلمى : ابن الفارض والحبّ الإلهي ، دار المعارف ، الطبعة الثانية) .

٣) هي من عبارات المتصوفة ، وممن ذكرها الكلاباذي في (التعرف لمذهب أهل التصوف) والغزالي في (الإحياء) ونحوهم .

٤) أبو الوفا التفتازانى : مدخل إلى التصوف الإسلامى ، ص٢١٧.

٥) أبو الوفا التفتازانى : مدخل إلى التصوف الإسلامى ، ص٢١٨.

٦) حالة شعورية خاصة يفقد فيها الشخص مؤقتا شعوره بالأنا ، مدخل إلى التصوف الإسلامى ، ص ١١١

بفرض التمتع بنعيم الجنة بل حبًّا خالصاً لله دون غرض » ، وعن جميع أوصافه وأهوائه وأغراضه ، وعندئذ يكون خالصاً لله لا لشيء دونه واستمع إلى ابن الفارض قائلا على لسان محبوبه[١] :

فلم تهوى ما لم تكن في فانيا ولم تفن ما لم تحمل فيك صورتى
فدع عنك دعوى الحب وادع لغيره فؤادك وادفع عنك فيك بالشيء

وقال ابن الدباغ [٢] رحمه الله تعالى :« فإن المحبة لا يعبر عنها حقيقة إلا من ذاقها ، ومن ذاقها استولى عليه من الذهول على ماهو فيه أمر لا يمكنه معه العبارة ، كمثل من هو طافح سكر ، إذا سئل عن حقيقة السكر الذى هو فيه ، لم يمكنه العبارة في تلك الحال ، لاستيلائه على عقله ، والفرق بين السكرين : أى سكر الخمر عرضى ، يمكن زواله ، ويعبر عنه في حين الصحو ، وسكر المحبة ذاتى ملازم ، لا يمكن من وصل إليه أن يصحو عنه ، حتى يجيء فيه عن حقيقته كما قيل :

يصحو من الخمر شاربوها والعشق سكر على الدوام » [٣]

لذلك لما سئل الإمام الجنيد رحمه الله تعالى عن المحبة ، كان جوابه فيضان الدموع من عينيه ، وخفقان القلب بالشوق ، ثم عبر عما يجده من آثار المحبة قائلا: «عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرقت قلبه أنوارٌ هيبته ، وصفاء شؤبه من كان ودَّه ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فإن تكلم فبا لله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله ، فبكى الشيوخ وقالوا : ما على هذا مزيد ، جزاك الله يا تاج العارفين »[٤]. وسالك طريق الصوفية لابد له من مرشد يأخذ بيده ويساعده على الوصول وهو الشيخ المتحقق الواصل .

---

١) أبو الوفا التفتازانى : مدخل إلى التصوف الإسلامى ، ص٢١٩ .

٢) ابن الدباغ هو أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد بن علي بن عبد الله الأنصاري، الأُسَيدي، المالكيّ، عُرِف بالدباغ، وكذلك بابن الدباغ. مؤرخ ، ومحدّث وراوية، وفقيه متصوّف، وله مشاركات عديدة في العلوم العقلية والنقلية.وُلد سنة ٦٠٥ هجري ، وتوفي سنة ٦٩٩ هجري من تصانيفه: " تاريخ ملوك الإسلام" ، وكذلك " جلاء الأفكار في مناقب الأنصار" ، كما كتب كتاباً في تراجم أهل القيروان. ومن مؤلفاته أيضاً كتاب (الأحاديث الأربعون في عموم رحمة الله لسائر المؤمنين) وكتاب (تاريخ القيروان من بلاد الغربعاش ابن الدباغ في القرن السابع الهجري، ولدينا ما يشير إلى أنه قيرواني الأصل والمنشأ ، وقضى معظم حياته في زمن الموحدين الذين امتدّ عصرهم منذ عام ٥٢٤ حتى عام ٦٧٤ هجري. وقد كان العصر آنذاك عصر اضطرابٍ وتفكّكٍ وحروبٍ وصراعاتٍ وإصلاح .

٣) عبد الرحمن بن محمد الأنصارى : مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٩م. ص٢١.

٤) ابن القيم : مدارج السالكين ، ج٣، ، دار الصميعى للنشر والتوزيع ، السعودية، ط١، ٢٠١١ ص١١.

المبحث الثالث
أهمية وجود الشيخ للمريد

الصوفية فى طريقهم إلى الله لابد لهم أولا – قبل أن يسلكوا – أن يحددوا طرقهم وأن يرسموها بعناية ودقة، ويلتزموا بجميع بنودها ومعالمها، وأن يضع الصوفى قدمه على أعتاب تجربة جوانبها تتطلب شمول الوعى والدراية بالنفس الإنسانية فى غرائزها، ونزواتها، وجموحها، وقهرها، ولابد أن تكون لديه إرادة صادقة وعزيمة قوية ، فلا يخفى ما للنفس من سلطان يظهر بوجوه مختلفة، فتتدرج إلى المكر ومن الضعف إلى قمة القوة، لذلك كان من الضروري وجود مرشد من كبار الصوفية الواصلين مهمته إرشاد السالك للوصول إلى الحضرة الإلهية والتحقق بمعرفة الله معرفة قلبية.

يذهب التفتازانى إلى أنه لابد للسالك في بداية طريقه إلى الله من شيخ يسترشد به ويهديه إلى الطريق الحق ، حيث إن السالك لا يستطيع أن يسلك طريق التصوف بمفرده ، لأنه طريق صعب متشعب المسالك كثير المنحنيات ، مليء بالصعاب والأخطار ، يتربص بسالكيه أعداء أشداء في حاجة إلى جهاد ، ومن هؤلاء الأعداء ، الشيطان وهوى النفس الأمارة بالسوء ، لذلك فإنه لابد لمن سلك هذا الطريق الصعب من مرشد أو هاد يأخذ بيده ، وهو الشيخ ، فالشيخ هو الذى يحدد لمريده طرق الوصول إلى الله ويساعده على السير[١] ، وفي ذلك يقول الغزالى : « فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لا محالة يهديه إلى سواء السبيل ، فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة ، فمن لم يكن له شيخ يهديه ، قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة ، فمن سلك سبيل البوادى المهلكة بغير خفير فقد خاض بنفسه وأهلكها ، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التى تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب ، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر» [١] . اتخاذ الشيخ المرشد المستجمع لمقومات التربية والإرشاد ، ليكون قدوة وإماماً يقتدى به المريد في سفره إلى الله عزوجل .

ومن أعظم فوائد مصاحبة المريد للشيخ ، اختصار الطريق على المريد وطي منازل السلوك ، ولقد أوضح ذلك الشيخ عبدالوهاب الشعرانى[٢] فى قوله : « وكان صور مجاهدتى لنفسى من غير شيخ أننى كنت أطالع كتب القوم كـ" رسالة القشيرى "[٣] ، " وعوارف المعارف " للسهروردى [٤] ،

---

١) أبو الوفا التفتازانى: سيكولوجية التصوف ، ص٤٣٥.

٢) عبد الوهاب الشعرانى: أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن على الشعرانى ، نسبة إلى قرية ساقية أبى شعرة بالمنوفية ، حيث هاجر إليها جده من الصعيد واستوطنها ، وكانت له بها زاوية للتعليم ، ولد سنة ٨٩٨هـ، والشعرانى عالم متحقق كانت له جهوده في الدعوة إلى الله تعالى ، وأسس زاوية يتلقي فيها الطلاب علوم الظاهر والباطن ، وأصبحت زاوية الشعرانى منارة إسلامية ، وكانت بمثابة منارة للعلماء ، ومنبراً للدعوة والإرشاد ، وساحة للذكر والعبادة ، وأثرى المكتبة الإسلامية بعدد كبير من الكتب منها " الأجوبة المُرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية " و"الأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية (عبد المنعم ، الموسوعة الصوفية ، ص٤١٦-٤١٧) .

٣) القشيرى: هو ولد عبد الكريم أبوالقاسم القشيرى في سنة ٣٧٦هـ في خراسان من أسرة تاريخ استقرارها في تلك البلاد إلى عهد الفتح الإسلامى، ولما شب ذهب إلى نيسابور ، ليتلقى فيها العلم ، فالتقى هناك بأبى على الدقاق كبير أساتذة المنسكين في تلك المدينة في ذلك العصر، وأخذ يختلف إلى دروسه ، فدفعه الأستاذ في طريق الصوفية ، وفي سنة ٤٤٣هـ ، ألف رسالة القشيرية الشهيرة . وفي سنة ٤٤٨هـ ارتحل إلى بغداد ، وهناك جعل يلقى دروساً في السنة والفقه على مذهب الإمام الشافعى ثم عاد إلى نيسابور وتوفي فيها في سنة ٤٦٥هـ (الحسينى الحسينى معدى ، موسوعة الصوفية نشأة وتطور التصوف وموقف القرآن والسنة من أعلام التصوف الفلسفى والسنى إشكالية تعريف التصوف ص٢١٩) .

٤) السهروردى البغدادى : أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن السابع الهجري ، ولد بسهرورد بفارس (٥٣٩ - ٦٣٢هـ) وهو مؤسس الطريقة السهروردية الصوفية، وصفه الذهبي

و"القوت " لأبى طالب المكى [١]، والإحياء للغزالى ، ونحو ذلك ، وأعمل بما ينقدح لى من طريق الفهم، ثم بعد مدة : يبدو لى خلاف ذلك ، فأترك الأمر الأول وأعمل بالثانى ، وهكذا ، فكنت كالذى يدخل دربا لا يدرى هل ينفذ أم لا ؟ فإن رآه نافذاً خرج منه ، وإلا رجع ، ولو أنه اجتمع بمن يعرِّفه أمر الدرب قبل دخوله لكان بيَّن له أمره وأراحه من التعب ، فهذا أمثال من لا شيخ له !!. فإن فائدة الشيخ إنما هو اختصار الطريق للمريد ، ومن سلك من غير شيخ ، تاه وقطع عمره ولم يصل إلى مقصوده ، لأن مثل الشيخ مثل دليل الحجاج إلى مكة في الليالى المظلمة »[٢].

وقد وصف أبو الوفا التفتازانى الشيخ بالطبيب النفسى البارع ، فهو يلجأ إلى التحليل النفسى لتعريف أحوال نفس المريدين ، وتشخيص أمراضها ، معتمدا على الإيحاء في معالجة كثير من الأمراض النفسية[٣] .

وتقوم العلاقة بين الشيخ والمريد - فيما يرى التفتازانى - على أسس نفسية ، ولابد للمريد حين يقبل على شيخه من صفات نفسية معينة يتصف بها ، وآداب مخصوصة يتأدب بها ، ومن أهم ذلك أن يفضى المريد على شيخه بدقائق احوال نفسه ، كأن يعترف أمامه بمشاكله الخاصة به ، وما يعانيه في حياته الوجدانية من الآلام ، وما يعتريه من مخاوف وشكوك ، وما ينتابه من اضطرابات نفسية مختلفة[٤] .

فإن الشيخ هو أكثر إحاطة بدقائق النفس وخفاياها منه ، ليعلم ما يعترض السالك من عقبات ، فيبصر الشيخ السالك أو المريد بعيوب أعماله ويبصره برعونات نفسه ؛ لأنه عليم بدائها ويضع العلاج المناسب لها ، ويمكن أن نشير إلى أن الواجب على المريد أن يكون في طاعة شيخه الذى ارتضاه مرشدا له وهاديا إلى طريق النجاة[٥] .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن من واجب المريد نحو شيخه ألا يكتم عنه سراً ، بل ينبغى عليه أن يذكر له كل ما يجول بخاطره من أسرار وهموم ومشكلات .

بـ «الشيخ الإمام العالم القدوة الزاهد العارف المحدث شيخ الإسلام أوحد الصوفية»، وقال عنه ابن النجار: «كان شهاب الدين شيخ وقته في علم الحقيقة، وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين، ودعاء الخلق إلى الله، والتسليك ، من أشهر كتبه : " عوارف المعارف " ، " رسالة السير والطير" ، " غاية الإمكان فى علم الكلام" ، " المسك المختوم " . وغيرها كثير (سهام عبد المجيد : السهروردى البغدادى بين الشريعة والحقيقة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١١م، ص ٢٨-٣٣) .

١) أبو طالب المكى:- محمد بن عطيه الحارثى ، الإمام صاحب كتاب " قوت القلوب" ، وهو المرجع الثبت في التصوف ، تأثر به الغزالى في كتابه " إحياء علوم الدين" ، وذكره كأحد المتون في كتابه " المنقذ من الضلال" ، واقتبس منه الكثير أبو حفص شهاب الدين السهروردى في كتابه " عوارف المعارف". والمكى من أهل الجبل بين بغداد وواسط ، وكانت نشأته وشهرته بمكة ، وإليها ينسب . والكتاب عنوانه الكامل " قوت القلوب في معاملة المحبوب ، ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد " وقيل: إن المكى رحل إلى البصرة ، فاتهموه بالاعتزال ، وسكن بغداد ووعظ بها فحفظ الناس عنه أقوالاً هجروه من أجلها ، وتوفى ببغداد سنة ٣٨٦هـ (عبد المنعم الحفنى ، الموسوعة الصوفية ، ص٤٤١) .

٢) عبد الوهاب الشعرانى : المنن الكبرى أو لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، مطبعة الميمانية ، ١٣٢١هـ ، ص١٢٣.

٣) التفتازانى : سيكولوجية التصوف ، ص٣٤٦.

٤)أبو الوفا التفتازانى : سيكولوجية التصوف ، ص٣٤٥.

٥) جودة محمد المهدى : التصوف روح الإسلام ، أطلس للاستيراد والتصدير، د.ط، القاهرة ٢٠١٤م ، ص٢٣٤.

إذن الشيخ بالنسبة إلى المريد إنما هو طبيبه ومداويه ، وهنا نستطيع أن نشير إلى تلك المقارنة بين الطب النفسى والطرق الصوفية ، باعتبار أن العلاقة بين الطبيب المعالج والمريض النفسى ، أشبه ما تكون بالعلاقة بين الشيخ والمريد[١].

والشيخ حين يتعرف إلى نفسيات مريديه وأتباعه يستطيع أن يرسم لكل واحد منهم طريقاً خاصاً به في رياضاته ومجاهداته ، مراعيا في ذلك الفروق الفردية بين المريدين ، فلا يشير عليهم بنمط واحد من الرياضة ، يهلكهم ويميت قلوبهم . بل ينبغى أن ينظر في أمراض المريدين ، كالطبيب لوعالجهم جميعهم بعلاج واحد قتل أكثرهم[٢] .

والحقيقة أن هناك تشابهاً كبيراً بين علاقة المريد والشيخ فيما يرى أبو الوفا التفتازانى في التصوف وبين علاقة المحلل النفسى والمريض فى علم النفس من حيث التسليم والصراحة والطاعة التامة ، فالشيخ يجب أن يكون على دراية بالاحتياجات النفسية للمريد ، كما يجب أن يتمتع الشيخ بإدراك حدسى وبصيرة عميقة لفهم النفس الإنسانية . فالشيوخ أطباء النفوس ومرشدو الأخلاق[٣] .

علاقة الشيخ بالمريد إذن هى علاقة ذات طبيعة خاصة لا يعرف أبعادها إلا من عاشها ، ومرافقه الشيخ وصحبته هي العلاج العملى لإصلاح نفس المريد ، وتهذيب الأخلاق ، وغرس العقيدة ، ورسوخ الإيمان ، لأن هذه الأمور تنال بالاستقاء القلبى والتأثر الروحى ، لذا يوصى العارفون بالله تعالى كل من أراد سلوك طريق الحق الموصل إلى معرفة الله ورضاه بالصحبة والاعتقاد والتصديق بهؤلاء المرشدين ، الدالين على الله تعالى الموصلين إلى حضرته القدسية[٤].

إن اتخاذ الشيخ واجب لمداواة أمراض النفوس والقلوب ، فإنه من المقرر عند علماء الحقائق أن أهل الله تعالى هم أطباء الأمراض القلبية . فإذا كانت الأمراض الحسية الجسمانية تقتضى وجوب الاستعانة بالأطباء المتخصصين في مداواة علل الأجسام فإنه من باب أولى الاستعانة بأطباء النفوس والأرواح ، لأن غاية علل الأجسام هى الموت ، في العذاب الأليم في الدنيا والآخرة والعياذ بالله تعالى[٥] .

ومن أهم شروط المريد فى الاقتداء بشيخه قوة المحبة له حتى يكون أحب إليه من نفسه ، لأنه مناط سعادته وهو الذى يجمعه على ربه ، قال السهروردى : « الحب والتآلف هو الواسطة بين المريد والشيخ ، وعلى قدر قوة المحبة يكون سريان الحال ، لأن المحبة علامة للتعارف »[٦]. وإذا سكن المريد إلى شيخ يهديه فإنه يبدأ في مجاهدة الشر في نفسه وتزكية الخير فيها .

---

١) التفتازانى : مجاهدة النفس علاج للقلق النفسى ، ص٩.
٢) أبو الوفا التفتازانى : مجاهدة النفس علاج للقلق النفسى ، ص ٨.
٣) المرجع نفسه : ص٩
٤) أبو الوفا التفتازانى : مجاهدة النفس علاج للقلق النفسى : ص٤٥.
٥) جودة محمد : التصوف روح الإسلام ، ص٢٠٤.
٦) المصدر نفسه ، ص١٢٣.

المبحث الرابع
المجاهدة النفسية

لا يزال التصوّف حيّا متحرّكا فاعلا لم ينطفئ نوره ، ولم تَخْبُ جذوته ، بل لا يزال رائداً في حمل دعوة الإسلام وتثبيت الناس على الدين والقيم ، لذلك يعتبر التصوّف إرثاً تربويّاً عظيماً يحفظ مقام الإحسان بعد الإيمان والإسلام ، ويقيم صرح الأخلاق على أسس إيمانيّة مثبّتة . وعلى هذا يكون التصوّف طريقاً إلى الله ، هدفه تدريب النفس على العبوديّة وردّها إلى أحكام الربوبيّة واسترسال النفس مع الله ، وهو منتهى آمال السالكين ، فكان جلّ جهدهم منصبًّا على ترقية النفس وأخذها بالمجاهدة والرياضة من كونها أمّارة إلى كونها لوّامة ، وملهمة ، وراضية ، ومَرْضيّة ، ومطمئنّة ، ولن يتمّ هذا إلاّ بفطم النفس عن المألوفات وحملها على خلاف هواها .

إن النفس الإنسانية لها جانبان :- جانب الخير وجانب الشر ، وعلى السالك أن يجاهد الشر فى نفسه ويغلب الخير عليه ، قال تعالى مشيراً إلى هذين الجانبين في النفس الإنسانية : **(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)** [١] ، وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ في حجَّة الوداع : (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ الْمُؤْمِنِ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ)[٢].

والله سبحانه وتعالى خلق للإنسان عقلاً يميز به بين الأعمال والأقوال الخيرة والأعمال والأقوال الشريرة وأمره بالالتزام بالأوامر والنواهى الإلهية .

والصوفيون يعنون عناية خاصة بمجاهدة النفس وتزكية الخير فيها وكبح شهواتها ورياضتها على تحمل الطرق الشاقة التى توصلهم إلى الله تعالى، لذا اهتموا، منذ وقت مبكر، بمعرفة النفس ، وما تتطلبه من أدوية لعلاج كل حالة يجدونها تظهر فيها، لذا كانت عنايتهم بالجانب الأخلاقى، فى طريقتهم، مدعاة لهم للاهتمام بالنفس ، فمبحث الأخلاق عند الصوفية كان قائماً على أساس « تحليل النفس الإنسانية لمعرفة أخلاقها الذميمة » [٣] ؛ لذا نص المعنيون بالتصوف على أن أول ما يلزم المريد علم آفات النفس، ومعرفتها، ورياضتها بالرياضات العملية من صلاة وصوم وذكر وسماع وعزلة وخلوة وتعبد وسهر وغيرها ، وتهذيب أخلاقها بالرياضات الروحية والتحقق بالمقامات الصوفية [٤].

ويعتمد أبو الوفا التفتازانى في مجاهدة النفس على التصنيف السيكولوجى فيما يختص بقوى الإنسان وملكاته النفسية ويذكر أربع قوى :- النفس ، والروح ، والقلب ، والسر . ولكل منها عند الصوفية وظيفة معينة ، فالنفس عندهم مركز للشهوات والأفعال المذمومة ، والروح مبدأ للحياة والأفعال المحمودة ، والقلب محل للمعرفة ، والسر محل للمشاهدة ، ويرى التفتازانى أننا لا نستطيع أن نضع حدوداً فاصلة بين هذه القوى إذ إنها ذات تأثير متبادل وإنها مرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً[٥].

---

١) سورة الشمس: الآيات من ٧-١٠.

٢) رواه شعيب الأرناؤوط ، في تخريج صحيح ابن حبان، عن فضالة بن عبيد ، رقم: (٤٨٦٢) ، إسناده صحيح، وله شاهد صحيح من حديث أنس.

٣) أبو الوفا التفتازانى ، مدخل إلى التصوف الإسلامي ، ص ١٢٢.

٤) الكلاباذى : التعرف لمذهب أهل التصوف ، تحقيق: محمود أمين النورى ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ١٠٥ .

٥) أبو الوفا التفتازانى : دراسات فى الفلسفة الإسلامية ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٥٧م ص ١٤١،١٤٢ / سيكولوجية التصوف ، ص٨٠.

وقد اتفق الصوفية فيما يرى أبو الوفا التفتازانى على أن النفس في حقيقتها منبع الشر وأهل السوء ، وهي السبب فى ظهور الأخلاق الرديئة والأفعال المذمومة شرعاً وعقلاً. وللنفس عند الصوفية فيما يرى التفتازانى ثلاث مراتب بحسب تعلقها بالبدن:-

النفس الأمارة بالسوء:- وهى التي تميل إلى البدن ، وتأمر باللذات والشهوات ، وهى منبع الأخلاق الذميمة والأفعال السيئة ، وتجذب القلب إلى أسفل ، وقال تعالى حاكياً عن يوسف وامرأة العزيز: (***وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ***) [١].

النفس اللوامة :- وهى التى تنورت بنور القلب إلى حد ما ، فبدأت بإصلاح حالها ، وكلما صدر منها سيئة بحكم طبيعتها الظلمانية ، تداركها نور التنبيه الإلهى ،فتلوم نفسها وهى مترددة بين البدن والقلب . ووصفها تعالى بكونها لوامة فقال : (***ولا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ***)[٢].

النفس المطمئنة :- وهى التى تنورت تماما بنور القلب ، فانخلعت عن صفاتها الذميمة ، وتخلقت بالأخلاق الحميدة ، وهي متجهة إلى جهة القلب ، أى فيما يقول الغزالى هى « التى سكنت وزايلها الاضطراب بسبب الشهوات »[٣] ، فقد وصفها الله تعالى بأنها راضية مرضية فقال : (***يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً***) [٤].

النفس الإنسانية بطبيعتها وفطرتها أمارة بالسوء مصداقا لقوله تعالى : (***إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ***)[٥] ؛ ولذلك وصف أبو الوفا التفتازانى سبل التخلص من الأخلاق الرديئة والأفعال المذمومة عن طريق الرياضة والمجاهدة ، وعن طريق المجاهدات يمكن تزكية النفس والوصول بها إلى درجات النقاء والصفاء ، وتحليتها من كل رديء واتصافها بالمعانى الحميدة ، يقول القشيرى : الجهاد قسمان :- جهاد الظاهر مع الكفار ، وجهاد الباطن مع النفس والشيطان ، وهو أن يملك العبد نفسه التى كانت في يد العدو من الهوى والشيطان ، فبعدما كانت ظاهرها مقرًّا للأعمال الذميمة وباطنها مستقرًّا للأحوال ومطالبات المولى ، وتصير النفس خاضعة لأشر الشهوات والقلب مثقل من وصف الغفلات والروح منتزعة من أيدى العلاقات ، والسر مضموناً عن الملاحظات وتصبح غاتمة النفس فيهزمه ورياسة الحقوق بالاستجابة لله خالقه[٦]. وبهذا يقول أبو الوفا التفتازانى : « أما الجهاد الأصغر ، وهو جهاد الأعداء بالسلاح في ساحة الوغى مردود إلى جهاد النفس أساساً ، فليس ثمة شك في أن الإنسان إذا لم يكن قويًّا على نفسه فإنه لا يستطيع أن يكون قويًّا على الوقوف أمام مصاعب الحياة على اختلافها »[٧] ، حيث إن الحياة فيما يرى التفتازانى لا تسير على وتيرة واحدة ، فهو تارة ينعم فيها بالرخاء ، وتارة أخرى يعانى فيها الشدائد ، فأما الإنسان الضعيف ينهار تماماً من الناحية المعنوية لأول مشكلة تصادفه ، في حين أن الإنسان القوى بإيمانه ، فإنه يقف دائماً على قدميه في معترك الحياة ، مكافحاً كفاح الشجاع الثابت الواثق بنفسه وبالله [٨] ، حيث يعد الجهاد اعتداءً بالسلاح أحد ألوان الشدائد التى تمر بالمجتمعات ، ولابد أن يسبقه خلاص تام من الناحية المعنوية عن غريزة حب البقاء والدنيا وهى غريزة فطرية في الإنسان ، وعن حب الأموال والبنين والشهوات وما إلى ذلك ، وعندها فقط يستطيع

---

١) سورة يوسف: الآية ٥٣ .
٢) سورة القيامة : الآية ٢ .
٣) الغزالى: إحياء علوم الدين ، ج٢ ، ص٢٣ .
٤) سورة الفجر: الآيات ٢٧-٢٨ .
٥) سورة يوسف : آية ٥٣.
٦) القشيرى : الرسالة القشرية في علم التصوف المقطم ، ط١ ، القاهرة ٢٠٠٩م ، ص٢٣٤.
٧) أبو الوفا التفتازانى: جهاد النفس مفهومه وأهدافه ، مقالة نشرت بمجلة التصوف الإسلامى العدد ٤٨ جمادى الأولى ١٤٠٣هـ فبراير ١٩٨٣م ، ص٦-٧.
٨) المرجع نفسه ، ص٧.

الإنسان أن ثبت فى المعركة أمام أعدائه ، وعلى هذا النحو كان صحابة رسول الله ﷺ ، فقد روى عنهم قول أبى عتبة : « ألا أخبركم عن أحوال كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ : أولها : لقاء الله تعالى كان أحب إليهم من الحياة ، والثانية: كانوا لا يخافون عدوًّا قلوا أم كثروا ، والثالثة : لم يكونوا يخافون عوزاً من الدنيا ، وكانوا واثقين برزق الله تعالى »[١].

ومن هنا ارتبط التصوف كعلم للأخلاق ، بعلم النفس ارتباطاً وثيقاً ، فكان الصوفية يجعلون- فيما يرى التفتازانى - علم النفس مندرجاً تحت الأخلاق والتصوف ، وإن شئت قلت : كان علم النفس عندهم علماً غائياً يهدف إلى غاية أخلاقية هي تهذيب النفس بتعويدها الفضائل الأخلاقية على اختلافها ، وبهذا حيث يجعل أبو الوفا التفتازانى التصوف مرتبطاً بعلم النفس والأخلاق .

وتستند مجاهدة النفس عند أبو الوفا التفتازانى إلى أدلة من القرآن الكريم والأحاديت النبوية ، فمن الآيات قوله تعالى : (***وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ***)[٢] ، وقوله :(***وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ***) [٣] ، وقوله :(***وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ***) [٤] . ومن الأحاديث التى تستند إليها مجاهدة النفس قول الرسول ﷺ:« مرحباً بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل: يارسول الله ، وما الجهاد الأكبر ؟ قال : جهاد النفس »[٥] ، وقوله ﷺ: « المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عزوجل »[٦] .

المجاهدة إذن فيما يرى أبو الوفا التفتازانى تعنى وصول الإنسان إلى درجة الإحسان وهى أعلى مقامات الدين ، والتى أشار إليها الرسول ﷺ بقوله :« أن تعبد الله كأنك تراه» [٧] ، وإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة نَعِمَ بشهود الله تعالى متجلياً في كل شيء ، ورأى تصريفه للأكوان على اختلافها ، وثبت إيمانه ثبوتاً تامًّا . والفضل في ذلك كله راجع إلى الله تعالى الذى هداه إلى هذا السبيل القويم ، وهذه المعانى كلها مشار إليها في قوله تعالى: (***وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ***)[٨].

فإذا أحسن الإنسان مجاهدته لنفسه كان الله معه بعونه وتأييده ، أما إذا استسلم لشهواته وخضع لملذاته ، فإنه يكون عندئذ ظالما لنفسه وهذا ما أشار إليه سبحانه بقوله تعالى: (***وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ***)[٩].

وهذا يعنى أن الإنسان هو وحده المسئول عن جميع أعماله الاختيارية ، وهو الوحيد من بين سائر الكائنات القادر على الارتفاع بنفسه من حضيض الشهوات والأهواء إلى فضاء التوحيد والمعرفة، وهو القادر فى نفس الوقت على النزول بها إلى أسفل سافلين ، لقوله تعالى: (**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ**) [١٠].

---

١) الطوسى : اللمع ، ص٢٣٤.
٢) سورة العنكبوت : الآية ٦.
٣) سورة العنكبوت: آية ٦٩.
٤) سورة التوبة : الآية ٤١.
٥) أخرجه البيهقى ، رقم الحديث (٣٧٣) ، كتاب الزهد الكبير، دار الجنان ، حققه: عامر أحمد ، ط١ ،١٩٨٧م ص١٦٥.
٦) رواه الترمذى حديث رقم (١٦٢١) ، كتاب فضائل الجهاد ، باب ما جاء في فضل الجهاد .
٧) رواه البخارى في صحيحه في كتاب تفسير القرآن ، تحت رقم (٤٧٧٧) ، كما رواه مسلم فى صحيحه ، كتاب الإيمان ، تحت رقم (٩ ، ١٠) ، والنسائى فى سننه ، كتاب الإيمان وشرائعه ، تحت رقم (٤٩٩١) .
٨) سورة العنكبوت : الآية٦٩.
٩) سورة الطلاق : الآية ١.
١٠) سورة السجدة : الآية ١٨.

المجاهدة النفسية مرحلة هامة فيما يقول أبو الوفا التفتازانى من مراحل التصوف ، والنفس هي بمثابة السجن وانطلاق الصوفى من هذا السجن رهن بتحرره من شوائب المادة ، وهذا ما يشير إليه ابن عربى بقوله: « المجاهدة هى حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال »[١]. ويرفض التفتازانى تصوير الملامتية [٢] الدائم للنفس بصورة التمرد والعصيان كما يرفض المبالغة فى لوم النفس وتقريعها[٣] .

وهو ما ذهب إليه أيضا الدكتور عامر النجار بأننا إذا وضعنا مجاهدة النفس ومحاسبتها لدى الصوفية في ضوء علم النفس الحديث رأينا أن الباحث في أقوال الصوفية يرى أن مجاهدة النفس هى عملية استبطان داخلى للكشف عن هذه النفس وصغائرها وخفاياها وخباياها ووساوسها وعيوبها ، ثم علاج هذه الآفات والعيوب علاجاً يقوم على أسس نفسية وبيولوجية فى آن واحد ، إذ إن من أصول المجاهدة عند الصوفية الجوع والصمت والسهر وكبت الغرائز[٤] ، واتفق الصوفية على أن كل مجاهدة مجاهدة بدنية لابد أن تنشأ عنها أحوال نفسية معينة ، وهذا يوضح لنا تماما أثر الظواهر البيولوجية في الظواهر النفسية[٥] .

وحياة الصوفى عبارة عن كفاح مستمر ، وهذا الكفاح ينشأ عن الصراع بين الميول والعواطف والنزعات التى لا توافق المبادئ الأخلاقية وبين القيم الروحية السامية التى يصبو المتصوف إلى تحقيقها([٦])، وأساس المجاهدة النفسية هو قمع هذه الميول والنزعات وهذا القمع يكون قمعاً شعورياً إراديًّا.

وبهذا يكون التصوف في حقيقته فى نظر أبو الوفا التفتازانى ليس نظريات نفسية أو أخلاقية أو ميتافيزيقية بقدر ماهو فلسفة حياة وطريقة معينة ينهجها السالك في حياته ، ورياضة عملية تمارس من أجل هدف معين هو تحقيق الكمال الأخلاقى الذى دعا إليه الإسلام[٧] .

إن التصوف الإسلامى هو الذى اهتم بالجانب القلبي والنفسي ، ورسم الطريق العملي الذى يوصل المسلم إلى أعلى درجات الكمال الإيماني والخلقي ، وإن التصوف منهج عملي يحقق انقلاب الإنسان من شخصية منحرفة ، يعوزها التوافق النفسي والإجتماعي إلى شخصية مسلمة مثالية متكاملة ، وذلك من الناحية الإيمانية السليمة والعبادة الخالصة والمعاملة الصحيحة الحسنة والأخلاق الفاضلة .

---

١) المرجع نفسه : ص٧.

٢) الملامتية : نسبة إلى الملامة الملامية ، وهى نزعة خاصة فى التصوف تبناها صوفية خراسان وخاصة النيسابوريين فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى – وهى فرقة صوفية أنشاها حمدون القصار (المتوفى ٢٧١هـ) ، وهو شيخ الملامتية بنيسابور ، ومنه انتشر مذهب الملامتية ، وتتلخص آراء الملامتية في القول بأنهم قد ذهبوا في مجاهدة النفس ومحاسبتها إلى حد إذلالها . إذ يرى الملامتى أن النفس شر محض فيقاوم كل ما يصدر عنها من أفعال وما يخطر له من خطرات ، إنه لا يستحسن شيئاً من أفعاله ، بل ينظر إلى كل أفعاله على أنها رياء (أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ، القاهرة ١٩٤٥م ، ص ١٥) .

٣) عبد المنعم الحفنى: الموسوعة الصوفية ، ص١٨٢ ، والحسينى الحسينى : موسوعة الصوفية ، ص٨٢١ .

٤) يوسف مراد : مبادئ علم النفس ، ص ١٥٢-١٥٣ ، واستخدام الكبت هنا فى المجال الصوفى بمعنى القمع الشعورى (مخالفة هوى النفس على كل حال) ، وهو يخالف ما ذهب إليه فرويد من أن الكبت هو قمع لا شعورى .

٥) أبو الوفا التفتازانى : أثر السلوك الإسلامى في علاج بعض أمراض النفس ، ص٥ ، وعامر النجار : التصوف النفسى ، ص٣٤٦.

[٦]) أبو الوفا التفتازانى : أثر السلوك الإسلامى في علاج بعض أمراض النفس ، ص٥ .

[٧]) أبو الوفا التفتازانى : الطرق الصوفية في مصر ، بحث نشر بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، بمصر ، مجلد ٢٥، ج٢، ١٩٦٣م ، ص٥٥ .

هذا على المستوى الفردي الذى يهم كل مسلم في خاصة نفسه ، أما على المستوي الإجتماعي فقد قام رجال التصوف بدور كبير ، وكان لهم حضور فعال في مجتمعاتهم ، ملأ جميع نواحى الحياة ومجالاتها بالخير والصلاح والنهضة الشاملة ، وذلك في مجال الدعوة للإسلام والجهاد في سبيل الله والعمل المثمر وتربية الناشئة ، وتحصين عقولهم من جميع التيارات الضارة التى تريد أن تعصف بهم ذات اليمين وذات الشمال .

وأينما وليت وجهك في شرق العالم الإسلامى أو في غربه ، تجد رجال التصوف قد سطر لهم التاريخ صفحات من نور ، واحتفظ بمآثرهم الغالية .

الخـــــــاتمة

من خلال عرض هذا البحث نستنتج ما يلى :

- ضرورة الربط بين التصوف والدراسات النفسية الحديثة ؛ ذلك لأن التصوف حالات وجدانية خاصة ، ومن ثم فإن دراسته ، من الناحية السيكولوجية ، تعتمد اعتماداً كبيراً على المنهج الاستبطانى في علم النفس ، الأمر الذى يزيد الفكرة الصوفية إيضاحاً وفهماً .
- يغلب التفسير النفسي على تعريف أبي الوفا التفتازانى للتصوف ، بأنه هو صفاء النفس البشرية ، وهو تربية روحية ، وفلسفة عملية أساسها المعرفة بالله أولاً وآخرًا . والمتصوف هو ذلك الشخص الذي استطاع أن يروض نفسه ويقاوم شهواته ليتحرر من سلطان البدن وليصل إلى المعرفة اليقينية لأسرار الكون وموجده .
- إن التمكن من معرفة طبيعة النفس الإنسانية يعد مسلكاً ضروريًّا وخطوة أساسية لفهم التجربة العرفانية ومعايشة الرحلة الوجدانية للصوفى . فللنفس الإنسانية طبيعة خاصة خصها الله بها دون سائر المخلوقات ، فالإنسان يحمل في نفسه طبيعة خيرة وأخرى شريرة ؛ لذا يجب على السالك أن يقوى الخير في نفسه ويجاهد الشر . ولا يمكن للسالك الوصول إلى نهاية الطريق - وهى المعرفة بالله معرفة يقينية - إلا بعد تصحيح البداية وهى المجاهدة ، من أجل صفاء النفس وخلوها من الأخلاق المذمومة وتحليتها بالأخلاق المحمودة .
- النفس الإنسانية من حيث طبيعتها وفطرتها أمارة بالسوء ولذا وجب على الإنسان مجاهدتها ؛ لذا يجب على السالك تزكية نفسه بأن يجدَّ ويجتهد في سيره فى الطريق الصوفى ، حتى تسمو النفس وتتحقق بالصفاء والإخلاص ، حيث لا حقد ولا حسد ولا كبر ليصل إلى تجلية القلب .
- التدين الحقيقى هو الذى يرتبط فيه الإنسان بخالقه برباط روحي وثيق ، والذى يراقب فيه الإنسان نفسه باستمرار حتى يلزمها الصواب ، بذلك يخرج الإنسان من أزماته النفسية ، فعلاج ضيق الصدر يكون باللجوء إلى الله والاعتماد عليه ، وهذا لا يكون إلا بالذكر والحمد والتسبيح والسجود.
- صوَّر أبو الوفا التفتازانى الشيخ بالطبيب النفسى البارع ، فهو يلجأ إلى التحليل النفسى لتعرف أحوال نفوس المريدين ، وتشخيص أمراضها . وذلك عن طريق التأمل الباطنى للنفس الإنسانية لتعرف عيوبها وآفاتها ، ثم علاج هذه الآفات والعيوب عن طريق تخلية النفس عن الأخلاق الذميمة وتحليتها بالأخلاق الحميدة .
- طريق الصوفية إلى الله تخلٍّ وتحلٍّ وتجلٍّ : أوله الإرادة ومجاهدة النفس ، ومراحله التحقق المقامات والأحوال، ونهايته المعرفة الذوقية اللدنية .
- مجاهدة النفس وسيلة من وسائل ترسيخ القيم الإسلامية في النفوس ، ومجاهدة النفس عند الصوفية قائمة على تزكية الخير فيها بالتعبد لله عن طريق الرياضات العملية والروحية .
- لا يكمل إسلام المرء إلا بطهارة القلب وحسن الخلق والصدق والإخلاص والمعرفة .
- الصوفى يخرج في نهاية الطريق من قلقه إلى ما يسمى عند الصوفية بالطمأنينة أو الاستقرار النفسى ، المؤدي إلى السعادة الدائمة نتيجة معرفة الله معرفة قلبية .

التوصيات والمقترحات :

- توصى الدراسة باستكمال مشروع أستاذنا الكبير الدكتور أبو الوفا التفتازانى بضرورة وضع تصور لمناهج إسلامية سيكولوجية وتربوية تواكب تغيرات وتقلبات العصر وتحافظ على القيم والمبادئ الإسلامية ، وبتعبير آخر لابد من صياغة مناهج إسلامية معاصرة تنفتح على الغرب مع الاحتفاظ بالهوية الإسلامية والاعتزاز بالانتماء للإسلام.
- •ضرورة الربط بين التصوف والدراسات النفسية الحديثة ؛ ذلك لأن التصوف حالات وجدانية خاصة ، ومن ثم فإن دراسته ،من الناحية السيكولوجية ، تعتمد اعتمادا كبيرا على المنهج الاستبطانى في علم النفس ، الأمر الذى يزيد الفكرة الصوفية إيضاحا وفهما ويحقق التوازن النفسى الايجابى.
- ضرورة الاهتمام بالدراسات النفسية التحليلية المقارنة للتصوف الاسلامى والتيارات الروحية الأخرى.
- وتقترح الدراسة الانفتاح على فكر العصر وثقافاته وهو أمر ضروري ، في نظر الأستاذ، بجانب الاهتمام - في الوقت نفسه - بتراثنا الديني والفكري والحضاري ، وعندئذ تجمع ثقافتنا بين الأصالة من ناحية والمعاصرة من ناحية أخرى . وتكشف موقفه في التأكيد على مجموعة من القيم الأساسية التي تلخص مغزى نصه وهدف كتاباته، وهي أنه لا يمكن لشبابنا أن يستقر نفسيًّا ويتجه إلى الخلق والابداع والابتكار في كل المجالات العلمية والثقافية والأدبية والفنية إلا إذا شعر بقيمته وبحريته في التعبير ، وبكرامته في مجتمعه ، وبأن له رسالة في هذه الحياة يحيا من أجلها ، فلا تبعية للغير ولا جمود على قديم في الوقت نفسه . وهنا تتحقق له هويته الحضارية المتميزة .

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- **كتب الصحاح**

أولا : المـصـــــــــــادر

(مصنفات الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى)

١. ابن عطاء الله السكندري وتصوفه ، ط ٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٩م .
٢. أثر السلوك الإسلامى في علاج بعض أمراض النفس ، مجلة التصوف الإسلامى ، العدد ٣ السنة ١٣ ، شعبان ١٤١١هـ ، مارس ١٩٩١م .
٣. الإسلام ووجودية سارتر، بحث نشر في الجمعية الفلسفية المصرية ، العدد الأول ، السنة الأولى ، يونيو ١٩٩٢، ص١٩.
٤. الطرق الصوفية في مصر ، بحث نشر بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، بمصر ، مجلد ٢٥، ج٢، ١٩٦٣م .
٥. جهاد النفس مفهومه وأهدافه ، نشرت بمجلة التصوف الإسلامى العدد ٤٨ ، جمادى الأولى ١٤٠٣هـ فبراير ١٩٨٣م .
٦. دراسات فى الفلسفة الإسلامية ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٥٧م .
٧. سيكولوجية التصوف ، مقالة نشرت بمجلة علم النفس ، عدد أكتوبر ، ١٩٤٩م .
٨. لماذا تشعر بالقلق ، بحث نشر بمجلة التصوف الإسلامى ، العدد الثانى ، ١٩٩٧م .
٩. مجاهدة النفس علاج للقلق النفسى ـ ٢، مقالة نشرت بمجلة التصوف الإسلامى ، العدد ١٠٠ ، مايو ، ١٩٨٧م .
١٠. مدخل إلى التصوف الإسلامى ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ،القاهرة ، ط٣ ١٩٧٩ م .

ثانيا : المراجـــــــــع

١١. ابن الجوزي: مرآة الزمان، قسم ١، ج٨ ، ط١ ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، الهند، (د.ت).
١٢. ابن الفارض ، الديوان، تحقيق: د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية ، بيروت، ٢٠٠٨م .
١٣. ابن عطاء الله السكندرى : مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح ، مصر ١٣٢٢هـ .
١٤. ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ، ج١ ، دار الصميعى للنشر والتوزيع ، السعودية ، ط١، ٢٠١١.
١٥. أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ، القاهرة ١٩٤٥م .
١٦. إيمان مصلحى : بحث بعنوان التصوف بين علم النفس الصوفى وعلم النفس الحديث ، دراسة في فكر الدكتور عامر النجار ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالإسماعيلية مصر ، العدد ٤٣ ،٢٠١٣ .
١٧. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبنانى ، د.ط ، بيروت ١٩٨٢م .
١٨. جودة محمد أبو اليزيد المهدى : التصوف روح الإسلام ، أطلس للاستيراد والتصدير، د.ط ، القاهرة ٢٠١٤م.
١٩. سليمان سامى محمود : الحب الإلهى ، دار الخلود للتراث ، ط١ ، القاهرة ، ٢٠٠٦م .
٢٠. الطوسى : اللمع ، تحقيق عبد الحليم محمود ، القاهرة ١٩٦٠م .
٢١. عامر النجار : التصوف النفسى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠١٦ .
٢٢. عبد الرحمن بن محمد الأنصارى : مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٩م .
٢٣. عبد المنعم الحفنى : المعجم الصوفى ، مادة تجريد ، ص ٤٨، دار الرشاد القاهرة ، ١٩٩٧م .
٢٤. عبد الوهاب الشعرانى : لطائف المنن والأخلاق، مطبعة الميمانية ، ١٣٢١هـ .
٢٥. الغزالى (أبو حامد) : إحياء علوم الدين ، ط١ ، دار ابن حزم ، بيروت ٢٠٠٥م .
٢٦. القشيرى : الرسالة القشيرية في علم التصوف المقطم ، ط١ ، القاهرة ٢٠٠٩م .
٢٧. الكلاباذى : التعرف لمذهب أهل التصوف ، تحقيق: محمود أمين النورى ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٨٠ م .
٢٨. محمد مصطفى حلمى : ابن الفارض والحبّ الإلهي، دار المعارف، الطبعة الثانية .
٢٩. محي الدين عبد الحميد طاهر : الزمان النفسى ، دراسة سيكولوجية للزمان عند صوفية الإسلام، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٩٢م .
٣٠. يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام ، القاهرة ١٩٥٤م .

ملخص البحث (باللغة العربية)

سيكولوجية التـــــــــــصوف عند أبى الوفا الغنيمى التفتازانى

أكد هذا البحث على عناية أستاذنا الكبير الدكتور التفتازانى بأهمية التحليل النفسى للمتصوف ، وبأن التصوف الإسلامى غنى بالدراسات النفسية والأخلاقية والروحية ، وأن الطابع النفسى لا يقل شأناً عن الطابع الأخلاقى ، وما تعرض له صوفية الإسلام من تحليل للنفس الإنسانية ، وبيان الأحوال التى تعرضوا لها ، وترتيب المقامات التى تختلف عليهم ، تمثل الغاية القصوى على أنها فناء العبد عن نفسه وبقائه بربه ونحو ذلك مما يدل على أن التصوف الإسلامى لم يكن علماً للأخلاق الدينية فحسب ، وإنما كان كذلك علماً للنفس الإنسانية وللمنازع الميتافزيقية التى تنتزع إليها هذه النفس .

ثم إن سعادة الصوفى لا تتحقق إلا بالقرب من الحبيب ، والبعد يفتت حياة القلوب، ولكنه لا ييأس ولا يمل وهذا من أهم خصائص التجربة الصوفية ، إنها وإن كانت إماتة لرغبات النفس ، إلا أنها إحياء وتدعيم للروح والقلب، ونهوض بالهمة، وهو ما يطلق عليه "اغتراب الهمة بترك الخُلُقِ الذميم"، فمن عرف الحق سبحانه، بأسمائه وصفاته، ثم صدق الله تعالى فى معاملاته، ثم تنقى من أخلاقه الرديئة، وآفاته، ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه، فحظى الله تعالى بجميل إقباله، وصدق الله فى جميع أحواله، وانقطع عن هواجس نفسه، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره، فإذا صار من الخلق أجنبيًّا، ومن آفات نفسه بريًّا ومن المساكنات والملاحظات نقيًّا... ودامت فى السر مع الله مناجاته وحق كل لحظة إليه رجوعه، وصار محدثاً من قبل الحق سبحانه... يسمى عند ذلك عارفاً وتسمى حالته معرفة، وفى الجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه عز وجل .

الصوفى إذن فى حالة فنائه فى محبوبه واغترابه الكامل عن نفسه وعن العالم ، يكون فى سعادة قصوى، ونشوة روحية غامرة ، حيث يرى السالك قوام الأشياء بالله ويرى كل شئ من الله، ويرجع فى كل شيء إلى الله .

وبهذا حاول التفتازانى أن يرسم لنا صورة عامة واضحة المعالم للطريق الذى يسلكه الصوفى بوجه عام ، وأن يصنف هذه الحالات الوجدانية التى ترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً ، بحيث يخضع التصوف لقانون سيكولوجى عام يمكن أن يوحد المتصوفة على اختلافهم . حيث أصبحت التجربة الصوفية ظاهرة فريدة جذبت إليها اهتمام الباحثين قديماً وحديثاً مما يستدعى الوقوف عندها وتحليلها وتقويمها ، وبذلك نستطيع أن نحكم عليها بأنها فلسفة حياة ، أو تجربة معايشة ، عاشها المتصوفة بكل كياناتهم وذواتهم، أنتجت نوراً صادقاً ينبع من قلب مشرق ، ونفس طاهرة وصافية بلغت درجة الروحانية، حتى انطبعت على صفحتها علوم المعرفة الربانية.

Abstract

Summary of the Research

Psychology of Sufism

According to Abu Al-Wafa Al-Gunaymi Al-Taftazani

This research confirms the attention of our great professor Dr. Al-Tafazani towards the importance of psychological analysis of Sufi and that Islamic Sufism is rich in psychological, moral and spiritual studies, and that the psychological character is not less important than the ethical character, and what the Sufis of Islam have subjected to analysis of the human soul and clarifying the circumstances they suffered from, order the positions which differ from them, all of that represents the ultimate goal that means the slave is separated from himself/herself and sticking to Allah and the like, the which indicates that Islamic Sufism was not only a science of religious ethics, but it is also a science of the human soul and the metaphysical tendencies that the soul is inclines to.

The happiness of Sufi is not realized except through being close to Allah as the distance is frittering the hearts but Sufi doesn't despair or surrender and this is one of the most important characteristics of the Sufi experience, as it is considered a killing of the soul and its desires, but it is a revival and consolidation of the spirit and heart, raising the endeavor and determination, which is called "alienation of endeavor through leaving the obnoxious character", as the one who realized Allah, glorified and exalted be He, with his names and qualities, then he was sincere before Allah in his dealings, then he was purified from his bad morals and lesions, so he has stuck to the right way and let his heart insisted on seclusion, so Allah satisfies with him because of his resorting to Allah, as he was sincere before Allah in his all acts, he was separated from any his premonitions of soul and he didn't listen with his heart to notion calls him to walk in another way. So, if he became a foreigner among the creators and he purified himself from his lesions of soul, and he separated himself from the observances and notes… he always secretly apostrophizes Allah and depends on Allah in every step he makes and in every moment he witnesses and became as a speaker with Allah the Almighty in his mind and self.. At this time, he is called connoisseur and his case is called knowledge. On the whole, according to the amount of his alienation away from himself, he will be more aware of Allah the Almighty".

Therefore, the Sufi in the case of his being overwhelmed with love of Allah and through his complete alienation from himself and from the world surrounding him, he will live in utmost happiness, and becomes in an overwhelming spiritual ecstasy, where the righteous sees the mainstay

of things with the help of Allah and sees everything from Allah, and returns back in everything to Allah.

In this way, Al-Tafazani tried to draw a clear and comprehensive picture of the path taken by the Sufi in general, and to classify these emotional cases which are closely related to each other, so that Sufism is subject to a general sociological law that can unite the Sufis despite their differences. The Sufi experience has become a unique phenomenon that has attracted the interest of researchers in the past and in the modern times, the matter which necessitates studying, analyzing and evaluating it, and thus we can judge it as a philosophy of life or experience of living, which the mystic lived with all their entities and their selves produced a veritable light emanating from a bright heart, pure and transparent soul that reached the degree of spirituality, until the science of the knowledge of Allah placed its signs and features on its character.